ذكريـــــات

عن عاهراتي الحزينات

(رواية)

للكاتب العالمي

جابرييل جارثيا ماركيز

ترجمة وتقديم

د. طلعت شاهين

أ

ذكريـــات

عن عاهراتي الحزينات

سنابل للنشر والتوزيع

الإشراف العام
د. طلعت شاهين

مدير التحرير
علي حامد

المراسلات
ص.ب.: 22
الحي المتميز. مدينة 6 أكتوبر
مصر

Tel.:
(202) 835 40 69
Mob.:
(20) 12 225 07 87

e-mail:
sanabook@maktoob.com

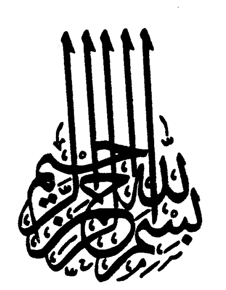


ذكـــــريـــات
عن عـاهراتي الحـزينات

المؤلف :
جابرييل جارثيا ماركيز
ترجمة وتقديم :
د. طلعت شاهين

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠٠٤
رقم الإيداع : ٢٠٠٤/١٩٥٥٠
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
977-5634-09

تصميم وتنفيذ الغلاف:
كامل جرافيك





تقديم

فاجأ الكتاب العالمي "**جابرييل جارثيا ماركيز**" قراءه في العالم كله بنشر رواية جديدة: "**ذكريات عن عاهراتي الحزينات**" التي صدرت قبل أسابيع قليلة في طبعة من مليون نسخة عن دار نشر "موندادوري" في برشلونة (إسبانيا)، التي خصها بنشر مذكراته برغم صغر حجمها، ولكن وفاءً منه لتلك الدار التي قدمته إلى القراء بتحمسها لنشر أعماله عندما كان كاتباً مغموراً، فيما كان القراء ينتظرون الجزء الثاني من مذكراته التي قدمنا جزأها الأول تحت عنوان "**أن تعيش لتحكي**" من الدار نفسها، والتي صدرت أول ترجمة عربية لها عن "**دار سنابل**" بالقاهرة.

وككل أعمال ماركيز السابقة كانت هناك إشاعات وحكايات صاحبت نشر هذه الرواية الجديدة، فقد نقلت وكالات الأنباء أخباراً عن صدور طبعة "مقرصنة" من الرواية في بلاده "كولومبيا" دون إذن من الناشر الإسباني، ولا حتى من الكاتب نفسه، وتم توجيه الاتهام إلى "مصححي" بروفات الرواية لتسريبهم النص الأصلي، وادعى الناشر الأصلي أن هذا الحدث دفع بالكاتب "جابرييل جارثيا ماركيز"

إلى تغيير نهاية الرواية لتختلف النسخة الأصلية الصادرة في إسبانيا عن "المقرصنة" الصادرة عن دار نشر كولومبية مجهولة.

لكن لغطاً دار بعد ذلك، يمكن اعتباره جزءاً من أعمال الدعاية للرواية أكثر منه حدثاً حقيقياً، فقد أكد الكاتب أنه عندما ينتهي عادة من كتابة أي عمل من أعماله لا يعود إليه لاحقاً مهما كانت الأسباب، بل حتى الأخطاء اللغوية والطباعية التي تصاحب عملية الكتابة يترك أمرها لمصححي بروفات العمل خلال عملية الطباعة، ويرى المتابعون لأعمال ماركيز أن رأيه هذا صحيح إلى حد كبير؛ لأنه اعتاد على هذا من خلال عمله كصحافي، ومَن امتهن تلك المهنة يعرف تماماً أن أية محاولة للتجويد في كتابة التحقيقات الصحافية بعد اكتمالها يمكن أن تؤدي إلى الخروج بالتحقيق من مساره ليصبح شيئاً آخر، وهو ما يخافه ماركيز لو أنه أعاد النظر في أي من أعماله الإبداعية، لأنه يخشى من الدخول في عملية إبداعية جديدة تضيع الكثير من وقته الذي يمكنه أن يستهلكه في كتابة عمل جديد، وإن كانت طريقته في كتابة مذكراته التي صدر الجزء الأول منها بعنوان: "**أن تعيش لتحكي**" كانت مختلفة، فقد تبين أنه كتب عدة آلاف من الصفحات من هذه المذكرات، وظل يراجعها إلى أن صدرت في الحجم الذي صدرت به وهو ستمائة صفحة فقط (في اللغة الإسبانية)، وربما كان التأخير في إصدار الأجزاء الباقية من تلك المذكرات يعود إلى "هاجس" المراجعة الذي أصاب "جابرييل جارثيا ماركيز"، وهو هاجس له ما يبرره في كتابة المذكرات، لأنها تتطلب دقة في "حكاية"

الأحداث في تسلسل كثيراً ما تهرب منه لاختلاطها مع حكايات أخرى أقرب إلى الإبداع الروائي، وكان هذا واضحاً في "**أن تعيش لتحكي**".

من ناحية أخرى تأتي الرواية الجديدة "**ذكريات عن عاهراتي الجزينات**" تحقيقاً لحلم قديم راود ماركيز من قبل، وصرح كثيراً به كجزء من إعجابه الشديد بالكاتب الياباني "**ياسوناري كواباتا**" وروايته "**بيت الجميلات النائمات**"، إلى درجة أن هذا الهاجس كان يلح عليه حتى في ممارساته لحياته اليومية، وكتب مرة عن حكاية حقيقية وقعت له خلال إحدى رحلاته بالطائرة، عندما جلست إلى جواره في الطائرة فتاة يابانية رائعة الجمال، تركت فيه أثراً إلى حد أنه كتب في بطاقته التي قدمها لرجل الجوازات بالمطار بيانات الكاتب الياباني، وتؤكد أنه ينتمي إلى الجنسية اليابانية.

رواية "**ذكريات عن عاهراتي الحزينات**" لا يمكن النظر إليها من عنوانها الذي يبدو وكأنه يحكي حكاية تتناول ذلك العالم السري الذي يعيشه بعض الكتاب في شبابهم، ويعودون إلى تذكره في شيخوختهم من قبيل الحنين إلى ماضٍ لا يستطيعون العودة إليه، لأنهم وصلوا إلى عمر لم تعد حالاتهم الجسدية تسمح به.

تحكي الرواية قصة رجل عجوز ينتبه فجأة إلى أنه عليه الاحتفال بعيد ميلاده التسعين، فيما يعيش في عزلة تامة، وكل علاقاته بالدنيا تكمن في مقاله الأسبوعي الذي يكتبه في صحيفة المدينة، وخادمته "دميانة" التي تكاد تكون الإنسان الوحيد الذي يحتمل

ممارساته في هذه الحياة. يقرر عندها أن يعود إلى متعته الوحيدة التي مارسها كثيراً في حياته منذ أن بدأ وعيه يتفتح على العلاقة مع الجنس الآخر مصادفة وهو لم يبلغ بعد الحادية عشرة.

يقرر عندها أن يعود إلى ماضيه السابق من خلال "روسا كاباركاس" تلك السيدة التي تدير البيت السري الذي كان نافذته إلى هذه الدنيا. وتنفيذاً لحلمه أراد أن يعيش ليلة حب مجنونة، فطلب منها أن تكون رفقته في هذه الليلة "صبية صغيرة" بشرط أن تكون "عذراء".

تتوالى بعدها الأحداث التي يكتبها ماركيز من خلال ضمير المتكلم، أو الراوي، وتختلط فيها الوقائع لنتعرف على المجتمع الذي يعيش فيه الكاتب، سياسيّاً واجتماعيّاً واقتصاديّاً، من أول تلك الحياة التي تدفع الكثير من الآباء إلى بيع بناتهم مقابل "لقمة خبز" للصغار الآخرين الذين يتضورون جوعاً؛ لأن عائد العمل لا يكفي الحياة في ظل جشع أصحاب الأعمال.

وكيف أن نظاماً سياسياً يدّعي أنه "محافظ" ويرفع شعارات الحفاظ عل قيم المجتمع، بل يضع رقيبا في كل صحيفة لفرض هذه القيم على "كتابة" أصحاب الرأي، فيما يمارس في الوقت نفسه "إخفاء" ما يحدث في الواقع مع ما يتنافى مع الحفاظ على تلك الشعارات وتطبيقها، وحادثة مصرع "مدير البنك" الشاب في هذا البيت السري وادعاء الحكومة "المحافظة" أنه مات نتيجة "عملية سطو"، وفرض

هذه الرؤية "الرسمية" حتى على الصحافي الذي شهد الواقعة وشارك في جزء منها.

أيضاً تتناول هذه الرواية بوضوح موقفاً رافضاً للمجتمع الذكوري الذي لا يرى في المرأة سوى جسدها، سواء بالاستخدام في المتعة، أم في أداء الأعمال المتدنية في المصانع والخدمة المنزلية، وربما في كليهما معاً. وهو موقف لا يكاد يبتعد كثيراً عن ممارسات مجتمعاتنا العربية التي لا تزال المرأة فيها جزءاً من المتاع مهما حققت من إنجازات، أو أبدت استعداداً لذلك.

لكن الصبية العذراء التي يلتقي بها في رحلته الجديدة من الحياة بعد التسعين، المغيبة الاسم والحياة؛ لأنها كانت معه طوال الرواية تقريباً مغيبة بفعل مخدر يجعلها نائمة، والتي يطلق عليها اسماً أحبه هو وفرضه عليها "ديلجادينا"، تجعله يغير نظرته إلى الحياة، ومعها تتحول طريقته في كتابته لمقالاته الأسبوعية، وأيضا تجعله يعود، عبر الذاكرة والواقع، إلى من عرفهن في حياته، وتجعله يرى أنه كان لحياته أن تتغير لو كان واعياً إلى علاقة صحيحة مع الجنس الآخر بعيداً عن "تابوهات" المجتمع الذكوري..

تنطبق على هذه الرواية تقنية الكتابة التي اتبعها ماركيز مع بداياته؛ أي التقتير الشديد في الوصف، والعودة إلى الحوارات السريعة المتلاحقة التي قد تربك القارئ في بعض الأحيان ما لم يكن منتبهاً خلال القراءة، مع التأكيد الدائم على أجمل ما قرأ من كُتب، أو ما سمع من موسيقى، فيذكر تلك الأعمال وكأنه يريد التأكيد دائماً

على ثقافته الواسعة في تلك المجالات الحيوية لأي كاتب مثقف يريد أن يصل إلى ما طمح ووصل إليه ماركيز.

هذه رواية تؤكد إمكانية الاستمتاع بالشيخوخة، والأمل في حياة أجمل من حياة الشباب لو أن الإنسان انتبه إلى أن هناك غرائز يمكن ممارستها في الشباب، ولكنها تظل غرائز يمارسها أي كائن على وجه الأرض، وأن الإنسان يمكنه أن يتحول إلى متع جديدة تجعله يستمتع أيضاً بالحياة، ويصل إلى ما وصل إليه بطل "**ذكريات عن عاهراتي الحزينات**" بالتقلب على الجانب الآخر بعد التسعين بحثاً عن الأمل في حياة تستمر تسعين عاماً أخرى.

ذكريـــــات

عن عاهراتي الحزينات



"ما كان يجب عليك أن تفعل شيئاً منافياً للذوق، حذرت العجوز "ايجوشي" سيدة الخان. ما كان يجب عليك أن تضع إصبعك في فم المرأة النائمة أو تفعل شيئاً مشابهاً"

ياسوري كواباتا

"بيت الجميلات النائمات"

-1-

عندما أكملت التسعين من عمري أردت أن أهدي نفسي ليلة حب مجنونة مع مراهقة عذراء. تذكرت "روسا كاباركاس"، صاحبة بيت سري اعتادت على الاتصال بالزبائن المميزين عندما يكون لديها شيء جديد. لم أُذعن أبداً لها ولا لأي من العروض المغرية الكثيرة، لكنها لم تكن تصدق نقاء مبادئي. أيضاً من الطبيعي التفكير في موضوع الزمن، كانت تقول، بابتسامة خبيثة، سنرى. كانت أصغر قليلاً مني، فقدت الاتصال بها منذ سنوات عدة لدرجة أنني فكرت أنها ربما تكون قد ماتت. ولكن مع رنة الجرس الأولى تعرفت على صوتِها في التليفون، وقلت لها مباشرة وبلا مقدمات:

– اليوم نعم.

تنهدت هي: آي، يا حكيمي الحزين، تختفي عشرين عاماً وتعود فقط لتطلب المستحيل. ثم عادت على الفور إلى السيطرة

على طريقتها في التعامل وعرضت نصف دستة من البدائل اللذيذة، لكنها كلها مستخدمة من قبل. أصررت على الرفض، وأنه يجب أن تكون مراهقة ولهذه الليلة نفسها. سألت هي منزعجة: ما الذي تريد أن تجربه؟. بشعوري بالمهانة في المنطقة المؤلمة، كنت أعرف ما الذي أستطيعه والذي لا أستطيعه. قالت هي بلا إحساس أن الحكماء يعرفون كل شيء، لكن ليس كل شيء: العذراوات الباقيات في العالم حضراتكم من هم في صيف العمر. لماذا لم تكلفني بذلك قبلها بوقت كافٍ؟، قلت لها: الإلهام يأتي فجأة. قالت هي: لكن ربما ينتظر. هي كانت دائماً تعرف أكثر من أي رجل، وطلبت مني مهلة ولو ليومين حتى تتقصى أوضاع السوق. أجبتها بجدية بأنه في تجارة مثل تلك، لرجل في عمري، كل ساعة تساوي سنة. قالت هي دون أدنى تردد: إذن لا يمكن، لكن لا يهم، بهذه الطريقة يكون الأمر أكثر إثارة، اللعنة، سأتصل بك خلال ساعة.

لا يجب عليّ أن أقوله؛ لأنه يميزني عن بعد عدة أميال: أنا قبيح، وخجول وأعيش خارج الزمن. لكني حتى لا أبدو كذلك فقد بذلت جهداً لإبداء عكس ذلك. وحتى شمس اليوم، الذي قررت فيه أن أحكي عن نفسي بقناعة شخصية، وإنْ كان ذلك لمجرد التخفيف عن ضميري. لقد بدأت بهذه المكالمة التليفونية

الغريبة مع "روسا كاباركاس"؛ لأنه بالنظر إليها منذ اليوم، فقد كانت تلك بداية حياة جديدة يكون فيها معظم البشر قد ماتوا.

أعيش في بيت كولونيالي على طوار الشمس لحديقة "سان نيكولاس" العامة، حيث أمضيت كل أيام حياتي بلا زوجة ولا مال، وحيث عاش ومات أبواي، وحيث قررت أن أموت أنا وحيداً، في السرير نفسه الذي ولدت فيه، وفي يوم أرجو ألا يكون بعيداً وبلا ألم. اشتراه أبي في مزاد علني مع نهاية القرن التاسع عشر، أجّر الطابق الأرضي المخصص لحوانيت فاخرة إلى شركة يملكها إيطاليون، واحتفظ بالطابق الثاني ليعيش سعيداً مع ابنة أحد هؤلاء الإيطاليين. "فلورينا دي ديوس كارجامانتوس"، عازفة معروفة لموسيقى "موتسارت"، وتجيد عدة لغات، كانت أجمل وأفضل امرأة موهوبة في المدينة: إنها أمي.

البيت واسع ومضيء، بأقواس من المصيص وأرضية من الموزاييك الشطرنجي الفلورنسي، وأربعة أبواب زجاجية على شرفة ممتدة كانت تجلس فيها أمي في ليالي مارس لتغني أغاني حب بصحبة بنات أعمامها الإيطاليات. من هناك يمكن رؤية حديقة "سان نيكولاس" العامة والكاتدرائية وتمثال كولومبوس، ومن خلالها تبدو مخازن الميناء النهري والأفق الواسع لنهر

"ماجدالينا" الكبير على بعدين عشرين ميلاً من مصبه. أسوأ ما في البيت أن الشمس تنتقل من نافذة إلى أخرى طوال اليوم، ولهذا يجب إغلاقها جميعاً حتى يمكن نوم القيلولة في الظل الحارق. عندما بقيت وحيداً، وأنا في الثانية والثلاثين، انتقلت للعيش في الغرفة التي كانت لأبوي، وفتحت باباً للمرور إلى غرفة المكتبة مباشرة، وبدأت في بيع ما زاد عن حاجتي حتى أعيش، حتى بعت كل شيء تقريباً، ما عدا الكتب والبيانولا اليدوية.

عملت لأربعين عاماً نافخاً في كابلات صحيفة "الدياريو دي لا باث"، والذي كان يتمثل في إعادة صياغة أخبار العالم التي كنا نلتقطها عبر الموجات القصيرة أو من خلال دقات مورس وإكمالها بنثر محلي. أعيش حالياً بالكاد على معاش تقاعدي من تلك المهنة المنقرضة، وأعيش بأقل من ذلك من معاشي كمعلم لقواعد القشتالية واللاتينية، ما أتقاضاه مقابل مقال الأسبوعي ينشر أيام الآحاد ظللت أكتبه بلا توقف خلال أكثر من نصف قرن لا يكاد يساوي شيئاً، ولا أتقاضى شيئاً على الإطلاق مقابل أخبار الموسيقى والمسرح التي ينشرونها لي كخدمة مجانية عندما يأتي إلى المدينة عازفون وممثلون معروفون. لم أفعل شيئاً آخر مختلفاً عن الكتابة، لكني لا أملك لا فضيلة ولا موهبة

الروائي، أجهل بشكل كامل قواعد التشكيل الدرامي، وإن كنت قد دخلت هذه المهنة فذلك يعود إلى ثقتي في نفسي على ضوء الكثير مما قرأته في الحياة. يمكنني القول بكل صراحة، إنني مجرد شرطي بلا تميز ولا شهرة، وليس لدي ما أقوله لو لم أكن أستعيد دائماً الكثير من الوقائع التي أتذكرها عن ذكريات حبي الكبير هذا.

تذكرت يوم عيد ميلادي التسعين كما هي العادة دائماً، في الخامسة صباحاً. التزامي الوحيد، باعتباره يوم جمعة، كان كتابة مقالي الموقع باسمي الذي ينشر أيام الأحد في "دياريو دي لا باث". علامة ظهور الفجر أكدت على عدم الإحساس بالسعادة: عظامي تؤلمني منذ الفجر، ومؤخرتي تحرقني، وكان هناك برق يوعز بهبوب عاصفة بعد ثلاثة أشهر من الجفاف. أخذت حماماً بينما كانت القهوة على النار، تناولت فنجاناً كبيراً محلى بعسل النحل مع فطيرتين من دقيق الجذور[1]، وارتديت الرداء المملوكي[2] المنزلي المصنوع من الكتان.

---

(1)- دقيق يصنع من جذور شجرة استوائية ضخمة يطلقون عليها اسم "مانديوكا"، قاموس "ريال أكاديميا". (المترجم).

(2)- "المملوكي" هكذا يسمون الرداء المترلي في كولومبيا وهو رداء يكون عادة من القطن الخفيف (المترجم).

موضوع المقال في ذلك اليوم، وكما هو متوقع، كان عن سنواتي التسعين. لم أفكر في العمر أبداً على أنه مثل ماء متساقط من السقف ينبه الواحد منا إلى حجم ما تبقى له من عمر. منذ طفولتي المبكرة سمعتهم يقولون إنه عندما يموت الإنسان فإن الحشرات التي تعيش في الشعر تهرب متبخرة عبر المخدات مثيرة خجل العائلة. أثّر فيّ هذا إلى درجة إنني افتعلت الكحة حتى لا أذهب إلى المدرسة، وما تبقى لدي من قوة كنت أستخدمه في غسل رأسي بصابون مطهر. آي، أتذكر نفسي الآن، إنني منذ طفولتي المبكرة نمّيت إحساسي بالخجل الاجتماعي الذي هو الموت.

منذ شهور كنت منتبهاً إلى أن مقالي في عيد ميلادي لن يكون تباكياً خادعاً على السنوات التي مضت، بل على العكس تماماً: تمجيداً للمشيب. بدأت بتوجيه سؤال إلى نفسي عن الوقت الذي انتبهت فيه إلى أنني أصبحت عجوزاً، وأعتقد أنه كان قبل قليل من ذلك اليوم. عندما بلغت الثانية والأربعين ذهبت إلى الطبيب متشكياً من ألم في الظهر كان يعوق تنفسي. لم يعره الطبيب انتباهاً وقال لي: إنه ألم طبيعي لمن هم في مثل سنك.

قلت له أنا:

– في هذه الحالة، فإنّ غير الطبيعي هو سني.

ابتسم الطبيب في وجهي بأسى. وقال لي: أرى أن حضرتك فيلسوف. كانت تلك المرة الأولى التي فكرت فيها في سني على أساس الشيخوخة، لكن سرعان ما نسيت هذا. اعتدت على الاستيقاظ كل يوم بألمٍ مختلف متغير في المكان والشكل بمرور السنوات. يبدو أحياناً كما لو كان إبحاراً للموت وفي اليوم التالي يختفي. سمعتهم في تلك الفترة يقولون إن أول أعراض الشيخوخة أنَّ الواحد منا يبدو شبيهاً لأبيه. يبدو أنه محكوم عليّ بالشباب الأبدي، فكرت حينها؛ لأن شكلي الخيولي[3] لن يكون أبداً شبيهاً للكاريبي القح الذي كان عليه أبي، ولا الشكل الروماني الإمبراطوري لأمي. الحقيقة أن أول علامات التغيير كانت بطيئة إلى درجة لا تكاد تُلاحظ، خاصة إذا كان الواحد ينظر إلى نفسه من الداخل كما كان يفعل دائماً، لكن الآخرين ينبهونه من الخارج.

في العقد الخامس بدأت في تخيل نفسي عجوزاً عندما بدأت ألاحظ أولى علامات النسيان. في يوم من الأيام فتشت البيت بحثاً عن نظارتي إلى أن اكتشفت أنني أرتديها، أو أدخل بها إلى الدش، أو أضع نظارة القراءة دون أن أنزع نظارة الرؤية البعيدة. في يوم من الأيام تناولت إفطاري مرتين لأنني نسيت

(3) - الخيولي: يقصد شبه الخيول تعبيراً عن استطالة الوجه عند البعض.

المرة الأولى، وتعلمت التعرف على انزعاج أصدقائي عندما لا يتجرءون على تنبيهي إلى أنني أحكي لهم الحكاية نفسها التي حكيتها لهم الأسبوع السابق. إلى ذلك الوقت كانت لدي قائمة لتذكر الوجوه المعروفة وأخرى لأسماء كل منهم، لكن لحظة توجيه التحية لم أُفلح في مطابقة الوجوه مع الأسماء.

عمري الجنسي لم يزعجني أبداً؛ لأن قدراتي لم تكن ترتبط بي بل بهن، وهن يعرفن كيف ولماذا ومتى يردن. أضحك اليوم من الأولاد الذين في الثمانين من عمرهم عندما يستشيرون الطبيب خوفاً من هذه المفاجآت، دون أن يعرفوا أنهم في التسعين سيكونون أسوأ، لكن هذه الأشياء لا أهمية لها: إنها مخاطر البقاء على قيد الحياة. بالمقابل، يعتبر انتصاراً للحياة أن تفقد ذاكرة الكبار الأشياء التي لا قيمة لها، لكنها في مرات شاذة تخطئ في تذكر الأشياء التي تهمنا حقيقة. عبّر عن ذلك "ثيسرون" في جملة واحدة:

-لم يوجد بعد العجوز الذي ينسى أين خبأ كنزه.

بهذه الطريقة في التفكير، وطرق أخرى مختلفة، كنت قد أنهيت الكتابة الأولى للمقال عندما انفجرت شمس أغسطس من بين أشجار اللوز في الحديقة العامة، ودخول سفينة البريد النهرية إلى الميناء، التي وصلت متأخرة أسبوعاً كاملاً بسبب

الجفاف. فكرت: إلى هناك وصلت سنواتي التسعين. لن أعرف أبداً لماذا، ولن أحاول معرفة ذلك. لكنها كانت تعويذة لتلك الاستغاثة الجارفة التي جعلتني أقرر الاتصال تليفونياً بـــ"روسا كاباركاس" لتساعدني على تشريف عيد ميلادي بليلة متحررة. كنت قد أمضيت سنوات طويلة مع جسدي في هدوء مقدس، أقضي وقتي في القراءة غير المنتظمة لكتبي الكلاسيكية وبرامجي الخاصة عن الموسيقى الراقية، لكن الرغبة في ذلك اليوم كانت ضاغطة كما لو كانت وحياً من الله. بعد تلك المكالمة لم أستطع مواصلة الكتابة. وضعت السرير المعلق في ركن من المكتبة حيث لا تصل إليه شمس الصباح، وانطرحت وصدري يئن تحت ضغط قلق الانتظار.

أغرب علاقة في حياتي كانت تلك التي استمرت طوال سنوات مع الوفية "دميانة". كانت طفلة تقريباً، هادئة وقوية وبدائية، كلماتها قليلة وقاطعة، كانت تتحرك حافية القدمين حتى لا تقلقني بينما كنت أكتب. أتذكر إنني كنت أقرأ "*الرمح الأندلسي*" في السرير المعلق بالممر، وشاهدتها صدفة منحنية على حوض الغسيل بفستان قصير جداً إلى درجة أن خلفيتها المتماسكة كانت عارية. تحت وطأة حمى لا تقاوم رفعتها من الخلف، أنزلت سروالها حتى ركبتيها ودخلت فيها من الخلف.

قالت هي، بتشكٍ حزين: آي، سيدي. لم تفعل هذا بسبب الدخول بل بسبب الخروج. ارتعاش عميق هز الجسد، لكنها ظلت متماسكة. ذليلاً بسبب إهانتي لها أردت أن أدفع لها ضعف ما يُدفع لأغلى امرأة وقتها، لكنها لم تقبل ولا حتى ثمن واحد، فضاعفت لها ما يوازي حساب شهر كامل، على أن يكون ذلك دائماً خلال غسلها الملابس ومن الخلف.

فكرت أحياناً أن حسابات السرير تلك يمكن أن تكون كافية للحفاظ على علاقة بائسة خلال حياتي الضائعة، ونزل عليّ العنوان من السماء: ***ذكريات عن عاهراتي التعيسات***". حياتي العامة، بالمقابل، لم يكن فيها ما يثير الاهتمام: يتيم الأب والأم، أعزب بلا مستقبل، صحافي متوسط الموهبة وقفت أربع مرات على أعتاب الحصول على جائزة احتفالات ألعاب الزهور لمدينة "كارتاخينا دي اندياس"، وأنا المفضل لدى رسامي الكاريكاتير بسبب وفائي المثالي. أي: حياة ضائعة بدأتها بشكل سيئ منذ الأمسية التي أخذتني فيها أمي من يدي حين كنت في الثامنة عشرة من عمري لترى إن كان يمكن أن أنشر في "الدياريو دي لا باث" مقالاً عن الحياة المدرسية كنت كتبته في درس اللغة القشتالية والبلاغة. نُشر يوم الأحد مع مقدمة لرئيس التحرير تأمل في الاستمرار. بعد مرور سنوات، عرفت أن أمي دفعت

ثمن نشره ونشر المقالات السبع التالية، وبعدها لم يعد هناك مجال للتراجع، فقد بدأت مقالاتي الأسبوعية تشق طريقها بأجنحتها الخاصة، إضافة إلى أنني أصبحت من مزودي الأخبار وناقداً موسيقيّاً.

منذ أن حصلت على شهادة البكالوريا بدرجة ممتازة بدأت في تدريس القشتالية واللاتينية في ثلاث مدارس حكومية في وقت واحد. كنت معلماً سيئاً، بلا إعداد، ولا موهبة، ومعدوم الرحمة مع أولئك الصغار المساكين الذين كانوا يذهبون إلى المدرسة كأسهل طريقة للهروب من تسلط آبائهم. الشيء الوحيد الذي أمكنني فعله من أجلهم هو الحفاظ عليهم تحت سيطرة رعب مسطرتي الخشبية حتى تبقى فيهم على الأقل القصيدة الشعرية القريبة إلى قلبي: ***هذا، فابيو، آي من الألم، سترى الآن، حقولاً من الوحدة، وربوة حزينة، كانوا زمناً ما إيطالية شهيرة***. فقط عندما تقدم بي السن عرفت صدفة بالكنية السيئة التي علقها التلاميذ على ظهري:"***أستاذ الربوة الحزينة***".

هذا هو كل ما قدمته لي الحياة ولم أفعل شيئاً لكي أحصل منها على أكثر من ذلك. كنت أتناول طعام الغداء وحيداً في وقت الراحة ما بين درس وآخر، وفي السادسة مساء أصل إلى إدارة تحرير الصحيفة لأصطاد موجات الفضاء الفلكي. في

الحادية عشرة ليلاً، عندما يتم إغلاق الطبعة، بعدها أبدأ حياتي الحقيقية. كنت أنام في الحي الصيني مرتين أو ثلاث أسبوعيّاً، ومع رفقة مختلفة، وتم تتويجي مرتين كأفضل زبون خلال السنة. بعد العشاء في مقهى روما القريب أختار أي بيت سري صدفة وأدخل متخفياً من باب الفناء الخلفي. كنت أفعل هذا متلذذاً، لكن تلك العادة انتهت إلى أن أصبحتْ جزءاً من مهنتي بفضل تسيب ألسنة بعض الزبائن الكبار من السياسيين، الذين يحكون أسرار الدولة لعشيقاتهم الليليات، دون أن يفكروا في أن الرأي العام يسمعهم من خلال الحوائط الكرتونية. من خلال هذه الطريقة، ولم لا، اكتشفت أيضاً أن عزوبتي الأبدية تعود إلى اللواطة الليلية التي تروي عطشها مع الأطفال اليتامى في شارع "الكريمن" (الجريمة). كان حظي جيداً في أنني نسيتها، من بين الأسباب الكثيرة أنني عرفت الأشياء الطيبة التي يقولونها عني، وقدّرتُ قيمة هذا.

لم يكن لي أبداً أصدقاء حميمين، والقلة التي اقتربتْ مني هم الآن في نيويورك. أي: موتى، لأنه المكان الذي أعتقد أن الأرواح الحزينة تذهب إليه حتى لا تبتلع حقيقة حياتها الماضية. منذ تقاعدي لم يعد لي سوى القليل لعمله، بخلاف أني أذهب بأوراقي إلى الصحيفة مساء كل يوم جمعة، أو أعمال أخرى

قليلة الأهمية: حفلات موسيقية في مسرح الفنون الجميلة، ومعارض رسم في المركز الفني، الذي أنا أحد أعضائه المؤسسين، وبعض الندوات في جمعية التحسين العام، أو في احتفال كبير مثل موسم "فابريجا" بمسرح "أبولو". كنت أذهب في شبابي إلى صالون السينما المفتوح، حيث كان يفاجئنا إما خسوف القمر أو التهاب رئوي مزدوج بسبب الأمطار الثلجية. لكن لم تكن تجذبني الأفلام في حد ذاتها أكثر مما كان يجذبني الاهتمام بفتيات الليل اللاتي كن يضاجعن بما يوازي ضعف ثمن التذكرة، أو مجاناً، أو على الحساب. لم تكن السينما هوايتي. وكان العبودية لـــ"شيرلي تيمبل" النقطة التي طفحت في كأسي.

رحلاتي الوحيدة كانت أربع إلى احتفالات ألعاب الزهور في "كارتاخينا دي لاس اندياس"، قبل أن أكمل الثلاثين، وليلة سيئة في لنش بموتور، بدعوة من "ساكرامنتو مونتييل" لحضور افتتاح بيتها السري في "سانتا مارتا". أما عن حياتي المنزلية، فأنا قليل الأكل وأحب كل ما يقدمونه إليّ. عندما أصابت "دميانة" الشيخوخة لم تعد تطبخ في البيت، فكانت وجبتي المعتادة الوحيدة منذ ذلك الوقت هي عجة البطاطا التي أتناولها في مقهى روما بعد إغلاق الصحيفة.

هكذا في اليوم السابق على اكتمال أعوامي التسعين بقيت

ـلا غداء ولم أستطع التركيز في القراءة انتظاراً لأنباء "روسا كاباركاس". كانت الأجراس تقرع حتى الانفجار في حرارة الساعة الثانية، ودوران الشمس عبر النوافذ المفتوحة أجبرني على تغيير مكان سريري المعلق ثلاث مرات. اعتقدت دائماً خلال أيام عامي التسعين أنني كنت في أكثر الأعوام حرارة، وتعلمت تحملها، لكن الحالة النفسية في ذلك اليوم لم تمكّني من ذلك. في الرابعة حاولت أن أهدئ نفسي بالسوناتات الستة للتشيلو لـ"خوان سباستيان باخ"، في طبعتها الأخيرة للسيد "بابلو كاسالس". أعتبرها أنا أفضل عمل في كل الموسيقى، ولكن بدلاً من تهدئتي فقد تركتني في حالة أسوأ من السابق. فقد أصابني النعاس مع الثانية، التي أعتقد أنها بطيئة بعض الشيء، وخلال النوم اختلط عليّ أنين التشيللو بأنين سفينة حزينة قد غادرت. أيقظني التليفون في تلك اللحظة تقريباً، وأعاد لي الصوت الصدئ لـ "روسا كاباركاس" الحياة. قالت لي: حظك من السماء. لقد عثرت لك على بطة أفضل من التي كنت تريدها، لكن فيها عيب: لا تكاد تبلغ أربعة عشر عاما. قلت لها دون أن أفهم ما ترمي إليه: لا يهمني أن أغير القماطات. قالت هي: ليس بسببك، لكن من سيدفع لي مقابل سنوات السجن الثلاث؟.

لا أحد سيدفعهم، ولا هي بالطبع؛ فهي تكسب من بين

الصغيرات اللاتي في سوق حانوتها، اللاتي تفتتحهن وتعتصرهن حتى يمضين حياتهن كأسوأ عاهرات متخرجات من الماخور التاريخي لــ "نيجرا إيوفيما". ولم تدفع في حياتها غرامة واحدة، لأن فناءها كان منتدى لرجال السلطة المحلية، من أول المحافظ وحتى آخر موّظف في البلدية، ولم يكن مُتخيلاً أن صاحبة الماخور تنقصها القدرة على ارتكاب الجرائم على هواها. لذلك فإن ادعاءها الشرف في آخر لحظة يعود إلى رغبتها في الحصول على أعلى أجر مقابل خدماتها: ثمن أكبر عندما تكون الخدمة أكثر تعريضاً للعقاب. تم حل الخلاف بزيادة ثمن الخدمات اثنين بيزو، واتفقنا على أنني في العاشرة ليلاً أكون أنا في بيتها بخمسة بيزوات نقداً ومقدماً. ولا دقيقة قبل ذلك؛ لأن الصبية يجب عليها إطعام وإنامة أشقائها الصغار وكذلك أمها الكسيحة بسبب الروماتيزم.

بقيتْ أربع ساعات. كلما مرت، كان القلب يمتلئ برغوة حارقة كانت تمنعني من التنفس. بذلت جهداً عقيماً لتمضية الوقت في ارتداء الملابس. في الحقيقة لم يكن هناك جديد في هذا، وحتى "دميانة" تقول إنني أرتدي ملابسي بشكل طقوسي تشبه طقوس الأسقف. جُرحتُ بشفرة الحلاقة، وانتظرتُ حتى تبرد حرارة ماء الدش الساخنة بتعامد الشمس على المواسير،

وكان مجرد بذل الجهد لتنشيف جسدي بالفوطة يجعلني أعرق من جديد. ارتديتُ ملابسي استعداداً للمغامرة الليلية: الحلة الكتانية البيضاء، والقميص المخطط بالأزرق والياقة المنشاة، ورباط العنق الحريري الصيني، وأزرار الأكمام البيضاء الزنكية، والساعة الذهبية بسلسلتها المربوطة في عروة الجاكت. وأخيراً ثنيت أرجل البنطلون إلى الداخل حتى لا يلاحظ أحد إنني قد نحفت قليلاً.

أنا مشهور بأنني بخيل لأنه لا أحد يستطيع أن يتخيل أنني فقير جدّاً لأني أعيش في المكان الذي أعيش فيه، والحقيقة إن ليلة مثل تلك أكبر من أن تتحملها قدراتي. أخرجت بيزوين من صندوق التوفير الذي أحتفظ به تحت السرير لإيجار الغرفة، وأربعة لصاحبة الغرفة، وثلاثة للصبية وخمسة كاحتياط لعشائي ومصروفات نثرية أخرى. أي، الأربعة عشر بيزو التي تدفعها لي الصحيفة مقابل شهر من المقالات الأسبوعية. خبأتها جميعاً في جيب سري بالحزام وتعطرت ببخاخة ماء الكولونيا ماركة "فلوريدا دي لانمان وكيمب–باركلي وكامبني". شعرت حينها بموجة من الرعب، وعند الدقة الأولى للساعة الثامنة هبطت السلم المظلم ببطء، والعرق يتصبب مني خوفاً، وخرجت إلى الليلة الرائعة قبل ليلة احتفالاتي.

هبطتْ درجة الحرارة. كانت مجموعات من الرجال في ممر "كولومبوس" تتدافع في نقاش بأصوات مرتفعة عن كرة القدم. بين سيارات الأجرة الواقفة في منتصف الشارع بشكل متعامد على الرصيف. كانت هناك مجموعة موسيقية تعزف فالساً تحت ممر الأشجار المزهرة. وإحدى العاهرات الفقيرات التي تصطاد الزبائن من منتصف شارع "الموثقين" طلبتْ مني سيجارة كالعادة، أجبتها بالطريقة نفسها التي كنت أجيبها بها دائماً: توقفت عن التدخين منذ ثلاثة وثلاثين عاماً، وشهرين، وسبعة عشر يوماً. عند مروري أمام "الألامبري دي أورور" نظرت إلى نفسي في الفاترينات المضاءة ولم أراني كما كنت أشعر، بل أكثر كبراً في السن وأسوأ هنداماً.

قبل العاشرة أوقفت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يوصلني إلى المقبرة العالمية حتى لا يعرف إلى أين أنا ذاهب حقيقة. نظر إليّ عبر المرآة بمرح وقال لي: لا ترعبني، يا سيدي الحكيم، أرجو من الله أن يحفظني بحيوية مثل حضرتك. هبطنا سوياً أمام المقابر لأنه لم يكن يملك عملة صغيرة واضطررنا إلى البحث عن فكة في "المقبرة"، كانتين فقير حيث يبكى السكارى فيه أمواتهم فجراً. عندما صفينا حساباتنا قالي لي السائق بجدية: احترس، يا سيد، لأن بيت "روسا كاباركاس" لم

يعد كما كان من قبل. لم أملك سوى أن أشكره، مقتنعاً مثل كل الناس أنه لم يعد هناك سر تحت هذه السماء يخفى على سائقي سيارات الأجرة في ممر "كولومبوس".

توغلت في حي فقراء لا علاقة له بذلك الحي الذي عرفته قبل زمن. كانت الشوارع نفسها الواسعة برمالها الحارقة، ببيوتها المفتوحة الأبواب، وجدران من الخشب غير المدهون، وأسقف من الجريد العفص وأفنية من الحصى. لكن أهلها فقدوا هدوءهم. في أكثر البيوت كانت هناك جوقات موسيقية ترن طبولها في الأحشاء. وأي شخص يمكنه الدخول بخمسين سنتاً إلى الحفل الذي يحبه أكثر، ولكن أيضاً يمكنه أن يواصل الرقص مجاناً. كنتُ أسير متمنياً أن تبتلعني الأرض بداخل ملابسي الفليبينية، لكن لا أحد أمعن نظره فيّ، عدا خلاسي هزيل كان ينعس جالساً في باب أحد البيوت.

هتف فيّ بكل قلبه:

– في رعاية الله، يا دكتور، مضاجعة سعيدة!.

ماذا كان يمكنني أفعل سوى تقديم الشكر له؟!.. توقفت ثلاث مرات لالتقط أنفاسي قبل الوصول إلى آخر مرتفع. رأيت من هناك القمر النحاسي الكبير الذي يرتفع في الأفق، وجريان بطن مفاجئ جعلني أخشى على نفسي، لكنه مر سريعاً. في

نهاية الشارع، حيث يتحول إلى غابة من الأشجار المثمرة، دخلت حانوت "روسا كاباركاس".

لم تكن تبدو كما كانت في السابق، لقد كانت الأم القديسة الأكثر احتراساً ولهذا السبب الأكثر شهرة. امرأة ضخمة الحجم كنا نود أن نتوجها كعريف لشرطة المطافئ، بسبب حجم جسدها وأيضا بسبب قدرتها على إطفاء قناديل الكنيسة. لكن الوحدة قلصت من حجم جسدها، وجعّدت بشرتها، وحدّت من صوتها إلى درجة أنها كانت تبدو كطفلة عجوز. لم يبق لها من السابق سوى الأسنان المتقنة، إحداها مغطاة بطبقة من الذهب على سبيل الدلال. كانت محافظة على الحداد على زوج مات بعد خمسين عاماً من الحياة المشتركة، وزادت عليه بشيء أقرب إلى غطاء الرأس الأسود حداداً على موت ابنها الوحيد الذي ساعدها في تجارتها. لم يعد حياً فيها سوى عينيها المسطحتين والقاسيتين، ومن خلالهما انتبهت إلى أنه لم يتغير فيها شيء، ولا حتى فطرتها.

بالحانوت لمبة شاحبة معلقة في العمق ولا يكاد يوجد شيء للبيع في الدواليب، ولا حتى ليبدو غطاء لحرفة شهيرة يعرفها كل الناس، ولكن لا يعترف بها أحد. عندما دخلت على أطراف أصابعي كانت "روسا كاباركاس" تلبي طلبات أحد الزبائن. لا

أعرف إنْ كانت لم تتعرف عليّ أم أنها تصنّعت للحفاظ على شكل التعامل. جلستُ في كرسي الانتظار حتى تنتهي من عملها وخلال ذلك حاولت استعادة المكان كما كان في الذاكرة. كنتُ قد جئت أكثر من مرتين عندما كنا أنا وهي لا نزال في شبابنا، أنقذتني هي من رعبي. أعتقد أنها قرأت تفكيري؛ لأنها استدارت نحوي ورمقتني بشكل مزعج. تنهدتْ بحزن: أنت لا يمر بك الزمن. أردت أنا أن أجاملها: وأنتِ كذلك، ولكنكِ تغيرت إلى الأفضل. قالت هي: هل هذا صحيح؟، إلى درجة أن وجهك الخيولي عاد إليك مجدداً، ولكن بوجه حصان ميت. قلت لها بمكر: ربما هذا لأنني غيرت نوعية المطعم. تحمست هي: إن لم تخني الذاكرة كانت لديك عصا بحرية، قالت لي. كيف حالك؟، تهربتُ من الإجابة: الشيء الوحيد المختلف منذ أن فقدنا الاتصال أنه في بعض الأحيان تحرقني مؤخرتي. جاء توصيفها على الفور: لعدم الاستخدام. قلت لها: أنا استخدمها إلا في ما صنعها الله من أجله، لكن الحقيقة أن مؤخرتي كانت تحرقني منذ فترة، ودائماً عندما يكون القمر مكتملاً. بحثت "روسا" في درجها المليء بالعجائب وكشفت عن علبة صغيرة بها مرهم أخضر تفوح منه رائحة ليمونية للعطاس: قل للصبية أن تدهن لك قليلاً بإصبعها هكذا، محركة سبابتها بطريقة لولبية. أجبتها بسرعة إنه

بفضل الله أنني لا زلت قادراً على التعامل مع نفسي دون مساعدة من أحد. سخرت هي: آي، يا معلم، اغفر لي حياتي. ثم واصلت عملها.

كانت الصبية في الغرفة منذ العاشرة، قالت لي: كانت جميلة، ونظيفة وتربيتها حسنة، لكنها كانت مرعوبة؛ لأن صديقة لها هربت من سفينة "جايرا" ماتت نازفة خلال ساعتين. لكن حسناً، تراجعت "روسا"، هذا أمر طبيعي لأن أهل "جايرا" لهم شهرتهم في الفحولة. وعادت إلى حديثها: مسكينة، إضافة إلى هذا عليها أن تعمل في تركيب الأزرار في أحد مصانع القمصان. لم أعتقد أنه عمل صعب جداً. هذا ما يعتقده الناس، أجابت هي، إنه عمل أصعب من تكسير الحجارة. إضافة إلى هذا اعترفت لي أنها أعطت الصبية مشروباً مخدراً وهي الآن نائمة. خشيت أن يكون هذا من فنونها لرفع الأجر، لكن لا، قالت هي: كلمتي من ذهب. بقواعد ثابتة: كل شيء مدفوع بشكل منفرد، وبنقود نظيفة ومقدماً. وهكذا كان.

تبعتُها عبر الفناء، مستثاراً بذبول بشرتها، وبطريقتها السيئة في السير بساقيها المتورمتين داخل جواربها القطنية البدائية. كان القمر المكتمل يصل إلى منتصف السماء، ويمكن رؤية الدنيا كما لو كانت غارقة في مياه خضراء. بالقرب من الحانوت

كان هناك سقف من السعف يطل على شرفات الإدارة العامة، وحولها مقاعد خشبية جلدية وأسرّة معلقة في الأركان. في الفناء الخلفي، حيث تبدأ غابة الأشجار المثمرة، كانت هناك صالة تطل على ست غرف من الطوب غير المبلط، بنوافذ متصلة. الحجرة الوحيدة المسكونة كانت نصف مضاءة، و"تونيا لانيجرا" كانت تغني في الراديو أغنية عن قصص الحب الرديئة، تنفست "روسا كاباركاس": الأغنية هي الحياة. كنت متفقاً معها في رأيها، لكني لم أجرؤ حتى اليوم على كتابتها. دفعت هي الباب، دخلَت للحظات وعادت للخروج مرة أخرى. قالت: لا تزال نائمة. من الأفضل أن تتركها تستريح الوقت الذي يتطلبه منها الجسد، ليلك أطول من ليلها. كنت كالأعمى: ماذا تعتقدين عليّ أن أفعل؟، أنت خبير، قالت هي بلذة غير معتادة في مثل هذه المواقف، أنت خبير لسبب ما. استدارت نصف دورة وتركتني وحيداً في مواجهة الرعب.

لم يكن هناك من مهرب. دخلت الغرفة وقلبي مرتبك، ورأيت الصبية نائمة، كانت عارية وضعيفة في السرير الضخم المؤجر، كانت كما ولدتها أمها. مضجعة على جانبها، وجهها باتجاه الباب، مضاء بالنور القادم من العمق بقوة كاشفاً عن كل تفاصيل جسدها. جلست أتأملها من على حافة السرير بانجذاب

حواسي الخمس. كانت خمرية وفاترة. لقد أخضوعها لعملية تنظيف وتجميل لم تترك شيئاً ولا حتى شعر عانتها. ضفّروا شعرها، وكان في أظافر يديها وقدميها لمعاناً طبيعياً، لكن الجلد الذي يشبه العسل الأسود كان خشناً ومنهكاً. النهدان حديثا النبت كانا يبدوان كنهدي طفل تضغط عليهما قوة سرية على وشك الانفجار. أفضل ما في جسدها كانت قدماها الكبيرتين ذات الخطوات الخفيفة والأصابع الطويلة والحساسة كما لو كانت ليدين. كانت غارقة في عرقها الفسفوري رغم المروحة، والحر يزداد كلما تقدم الليل. من المستحيل تخيل كيف كان شكل الوجه المدهون، وطبقة بودرة الأرز الثقيلة ببقعتين ملونتين على الخدين، والرموش الاصطناعية، والحواجب والجفون تبدو كالمحترقة بسبب الدخان الأسود، وتم تكبير حجم الشفاه بورنيش الشكولاته. لكن لا الخرق ولا قصة الشعر تمكنت من إخفاء شكلها: الأنف المترفع، والحواجب المتصلة، والشفاه الثقيلة. فكرت: عجل صغير مولود للمصارعة.

في الحادية عشرة بدأتُ أنا حركتي الروتينية في الحمّام، حيث كانت ملابسها الفقيرة مطوية على كرسي بدقة الأغنياء: فستان ملون بفراشات مطبوعة، وسروال أصفر وصندل. على الملابس كانت هناك أسورة رخيصة وسلسلة رقيقة بصورة

للعذراء. وعلى حافة الحوض حقيبة يد بها قلم شفاه، وعلبة ألوان تجميل، ومفتاح وبعض القطع النقدية الصغيرة. كله رخيص جدّاً، ومستهلك بسبب الاستخدام لدرجة لا يمكنني تخيل أن هناك أفقر منها.

خلعت ملابسي وعلقتها على الشماعات على أفضل طريقة يمكنني القيام بها حتى لا أكرمش حرير القميص وكي البدلة الكتانية. تبولت جالساً، وكما علمتني "فلورينا دي ديوس" منذ طفولتي حتى لا أبلل جوانب القاعدة، ولا أزال، بلا تواضع، كنت أتبول بطريقة مباشرة وحادة كحصان صغير. قبل أن أخرج نظرت إلى مرآة حوض غسيل اليدين. الحصان الذي نظر إليّ من الجانب الآخر من المرآة لم يكن ميتاً بل حزيناً، وعليه مسحة بابوية من البابا، الجفون متورمة والعرف هزيل وقد كان في السابق قصة موسيقي. قلت له:

– قذارة، ماذا أفعل إذا لم تكن تحبني؟.

في محاولتي عدم إيقاظها جلست في السرير عارياً وقد اعتادت عيني على خداع الضوء الأحمر، وفحصتها شبراً شبراً. مررت طرف إصبعي على عمودها الفقري الغارق في العرق فارتعدت من داخلها كوتر في آلة هارب، استدارت نحوي بهمهمة واحتضنتني في رائحة أنفاسها الحادة. ضغطت على

أنفها بإصبعي الكبير والسبابة، فانتفضت، أبعدت رأسها وأدارت لي ظهرها دون أن ترمش. حاولت إبعاد ساقيها عن بعضهما بركبتي في محاولة غير متوقعة. غنيت لها في أذنيها: سير "ديلجادينا" محاطة بالملائكة. استرخت قليلاً. صعدت في عروقي موجة حارة، وحيواني البطيء المتقاعد استيقظ من نوم طويل.

"ديلجادينا"، يا روحي، رجوتها متشوقاً. "ديلجادينا". أطلقت حمحمة محزنة، وهربت من بين فخذي، وأدارت لي ظهرها واستدارت حول نفسها كحيوان بحري في قوقعته. يبدو أن الشراب المخدر كان قويّاً بالنسبة لي كما كان قويّاً بالنسبة لها؛ لأنه لم يحدث شيء، لا لها ولا لأحد. لكن هذا لم يهمني. سألتني نفسي عن فائدة إيقاظها، شعرت بالذل والحزن، وببرد كوخزة.

دقّت حينها الثانية عشرة، دقات واضحة، وبدأ فجر يوم 29 أغسطس، يوم استشهاد القديس "يوحنا المعمدان". كان هناك من يبكي بصوت صارخ في الشارع ولا أحد يستجيب. صليت من أجله، لو كان في حاجة إلى هذه الصلاة، وصليت من أجلي أيضاً، كشكر على ما حصلت عليه من فضائل: ***لا ينخدع أحد، لا، في انتظار الاستمرار أكثر ما انتظر وظل أكثر ما رأى.*** حمحمت الصبية في الحلم، فصليت أيضاً من أجلها: ***أن يمر كل شيء بأفضل ما يمكن.*** بعدها أطفأت الراديو والنور لأنام.

استيقظت فجراً دون أن أتذكر أين كنت. كانت الصبية لا تزال نائمة وظهرها لي في وضع جنيني. كان لدي إحساس بأنني شعرت بها قد استيقظت في الظلام وذهبت إلى الحمّام، وإنني سمعت صوت تفريغ سيفون الحمّام، لكن ربما كان حلماً. كان شيئاً جديداً لي. كنت أجهل براعة الإغواء، واخترت دائماً عشيقات الليل حسب الثمن وليس حسب ما تملك من إغراء، وكنا نمارس الحب بلا حب، نصف عرايا في أكثر الأحيان، وفي الظلام دائماً، حتى نتخيل بعضنا بشكل أفضل. في تلك الليلة اكتشفت لذة تأمل جسد امرأة نائمة بعيداً عن ضغوط الرغبة أو عوائق الخجل.

استيقظت في الخامسة، قلقاً لأن مقالي الأسبوعي ليوم الأحد كان يجب أن يكون على طاولة التحرير قبل الثانية عشرة. قمت بالتحلل اليومي ببعض الحرقان للقمر المكتمل، وعندما سحبت سلسلة السيفون شعرت أن كراهيتي الماضية ذهبت مع الماء. عندما عدت إلى غرفة النوم نشطاً ومرتدياً ملابسي، كانت الصبية تنام على ظهرها تحت نور الفجر الهادئ، كانت ممددة على السرير من أقصاه إلى أقصاه، والذراعان مفتوحين كصليب ومليكة مطلقة لعذريتها. يحرسك الله، قلت لها. كل النقود التي بقيت، نقودي ونقودها، وضعتها على المخدة، وودعتها إلى الأبد

بقبلة على جبهتها. البيت، مثل كل البيوت السرية في الفجر، كانت أقرب إلى الفردوس. خرجت من باب الحديقة حتى لا ألتقي بأحد. تحت شمس الشارع الحارقة بدأت أشعر بثقل أعوامي التسعين، وأعدّ دقيقة بدقيقة دقائق الليالي التي لا تزال باقية على موتي.



-2-

أكتب هذه الذكريات بين القليل الذي تبقى من المكتبة التي كان يملكها والدي، التي تكاد أرففها تتساقط بسبب عمل العثة الصبور. على أي حال، فإن ما تبقي لي في هذا العالم يكفيني: قواميسي التي تشمل جميع الأنواع، من المجموعات الأولى لـ"الوقائع الوطنية" للسيد "بنيتو بيريث جالدوس"، و"الجبل السحري" الذي علمني كيف أفهم أحوال أمي المصطنعة.

على عكس الأثاث الآخر، وأنا نفسي، فإن المكتب الذي أكتب عليه يبدو أفضل حالاً كلما مر الوقت، لأن جدي لأمي صنعه من خشب البلوط، فقد كان يعمل نجار سفن. وحتى إذا لم يكن لدي ما أكتبه، فإنني أعده كل صباح بالحرص الكبير نفسه الذي تسبب في ضياع العديد من فرص الحب. أجد عند أطراف أصابعي الكتب المحببة إليّ: أجزاء "أول قاموس مزين بالرسوم" للأكاديمية الملكية، الصادر عام 1903، و"كنوز اللغة القشتالية

أو الإسبانية" للسيد "سباستيان كوفاروبياس"، و"القواعد" للسيد "انريس بيلو"، يفيدني هذا الكتاب عندما تكون لدي شكوك حول أي معنى، طبقاً للحرص المطلوب، فإن هناك "القاموس الأيدلوجي" لـ"خوليو كاساريس"، خاصة مقابلاته ومترادفاته، و"مفردات اللغة الإيطالية" لـ"نيكولاس زينجاريلي"؛ حتى أنمي لدي لغة أمي، التي تعلمتها منذ المهد، والقاموس اللاتيني، لأنها تلك اللغة الأم للغتين الأخريين اللتين أعتبرهما لغتي الطبيعيتين.

على يسار المكتب أحرص دائماً على وجود خمس مجموعات من الورق المجمعة بالخيط لكي أمارس عليها مهنتي في كتابة مقال أيام الأحد، وقرن تراب الخطابات الذي أفضله على نشافات الورق الحديثة. وعلى اليمين هناك القلم بغطائه الذهبي، فلا زلت أكتب الخط الرومانتيكي الذي علمتني إياه "فلورينا دي ديوس" حتى لا أكتب الخط الرسمي لزوجها، الذي كان يعمل موثقاً عاماً ومحاسباً رسمياً حتى آخر لحظة من حياته. فرضوا علينا منذ فترة في الصحيفة الكتابة بالآلة الطابعة حتى يمكن حساب عدد الكلمات بشكل أفضل، لكني لم أستطع التطبع مع هذا الوضع، فواصلت الكتابة بيدي ثم أعيد كتابته من جديد على الآلة الطابعة بضربات شبيهة بنقر الدجاجة، وذلك بفضل امتيازي كواحد من أقدم العاملين. أما اليوم، فأنا متقاعد

ولكن لست مهزوماً، أتمتع بالامتياز المقدس بالكتابة في البيت، وسماعة التليفون مرفوعة حتى لا يقاطعني أحد، وبدون الرقيب الذي يتابع كتابتي من فوق كتفي.

أعيش بلا كلاب ولا عصافير ولا خدم، عدا الوفية "دميانة" التي كثيراً ما أنقذتني في لحظات حرجة، ولا تزال تأتي مرة في الأسبوع لعمل ما يمكن عمله، برغم حالتها التي هي عليها، نظرها ضعيف وقليلة الحيلة. رجتني أمي وهي في سرير موتها أن أتزوج في شبابي المبكر من امرأة بيضاء، وأن ننجب على الأقل ثلاثة أبناء، من بينهم طفلة تحمل اسمها، الذي كان اسم أمها وجدّتها من قبل. كنت حريصاً على تلبية رجائها، لكن كانت لدي فكرة مطاطة عن الشباب فلم أر أبداً أن الوقت قد فات. إلى أن حدث في منتصف نهار حار أن أخطأت أحد الأبواب في بيت "آل بالوماريس دي كاسترو" في "برادومور"، وفاجأت "خيمينا اورتيث" الابنة الصغرى عارية، كانت تنام القيلولة في الغرفة المجاورة. مضطجعة وظهرها للباب، واستدارت لتنظر إليّ من فوق كتفها بحركة سريعة لم تترك لي مجالاً للهرب. آي، معذرة، تمكنت من القول وروحي في حلقي. ابتسمت هي، واستدارت نحوي بجسد غزالة، واستعرضت أمامي جسدها كاملاً. كانت اللحظة كلها معبقة بحميميتها. لم تكن

عارية تماماً، بل كانت تضع في أذنها زهرة سامة ذات بتلات برتقالية، مثل لوحة "أولمبيا" لــ"مانيه"، وكانت ترتدي خاتماً من الذهب في كفها اليمنى وعقداً من اللؤلؤ الصغير الحجم. لم أتخيل مطلقاً أنه يمكنني أن أرى شيئاً مشوشاً ينزع الحياة، أستطيع اليوم أن أؤكد أنني كنت على حق.

أغلقت أنا الباب بضربة واحدة، خجلاً من بلادتي، مع إصرار على نسيان الأمر. لكن "خيمينا اورتيث" منعتني من تنفيذ قراري. أرسلت لي رسائل مع أصدقاء مشتركين، وبطاقات مثيرة، وتهديدات مرعبة، فيما انتشرت الشائعات بأننا نجن بحب كل منا للآخر دون أن نتبادل كلمة واحدة. كان من المستحيل مقاومة ذلك. عيناها عينا قطة برية، وجسدها مثير سواء بالملابس أم بغيرها، وشعرها ذهبي كثيف تفوح منه رائحة أنثوية تجعلني أبكي على المخدة. كنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون حبّاً، لكن الإغراء الشيطاني الذي كانت تمارسه عليّ كان قوياً إلى درجة أنني كنت أخففه بأية عاهرة ذات عيون خضراء ألاقيها في طريقي. لكني لم أستطع مطلقاً أن أطفئ نيران ذكرى رؤيتها في سرير بيت "برادومار"، وأخيراً استسلمت لها، بالتقدم لطلب يدها رسميّاً، وتبادلنا الخواتم وقمنا بالإعلان عن عرس كبير قبل حلول عيد الأسبوع المقدس.

انتشر الخبر بشكل أكبر في الحي الصيني أكثر من انتشاره في النادي الاجتماعي. قوبل أولاً بالسخرية، لكن تلك السخرية تحولت إلى معارضة من جانب سيدات الحظ اللاتي كن يرين أن الزواج مسألة غبية أكثر منه ارتباط مقدس. اكتمل عرسي بكل الطقوس الأخلاقية المسيحية في شرفة الأوركيدات الأمازونية والأشجار المعلقة في بيت أهل خطيبتي. كنت أحضر في السابعة مساء، مرتدياً حلة من الكتان الأبيض، وبأي هدية من الخرز المصنوع يدويّاً أو الشيكولاتة السويسرية، وكنا نتبادل الحديث حتى العاشرة، في حراسة العمة "أرخينديا"، التي كانت تنام عند أول ارتخاء للجفن كقوادات روايات تلك الفترة.

كلما تعارفنا أكثر على بعضنا كانت "خيمينا" تزداد شراهة، كانت تخلع صديراتها وفساتينها التي كانت تضيق بها كلما اقترب حر يونيو، وكان من السهل تخيل قدرتها المدمرة التي كانت تتملكها في الظل. بعد شهرين من الخطوبة لم يعد لدينا ما نتحدث عنه، وبدأت هي تتحدث في موضوع الأولاد دون أن تقوله بصراحة، كانت تنسج أحذية صغيرة من الصوف الطبيعي لأطفال حديثي الولادة. أنا، الخطيب المهذب، تعلمت النسج معها، وهكذا أمضينا الساعات الضائعة التي سبقت موعد العرس، أنا أنسج أحذية زرقاء للأولاد وهي تنسج الوردية

للبنات، ونتراهن على من يصدق حدسه، حتى زاد العدد عن الخمسين من الأبناء. وقبل أن تحل الساعة العاشرة كنت أصعد عربة تجرها الخيول وأذهب إلى الحي الصيني لأعيش ليلتي في سلام الله.

حفلات وداع العزوبية التي كانوا يقيمونها لي في الحي الصيني كانت تسير في عكس سهرات النادي الاجتماعي الكئيبة. إنه تناقض أفادني في معرفة أي من العالمين في الواقع هو عالمي، وحلمت بأن أعيش العالمين معاً ولكن لكل عالم أوقاته، فمن كل عالم كنت أرى الآخر يبتعد كزفير صفارات السفن المفترقة في أعالي البحار. وحفلة الرقص السابقة على أعياد الأسبوع المقدس تم خلالها الإعلان عن حفل نهائي ما كان يخطر على بال أحد سوى قس جيليقي[4] تسيطر عليه الشهوة، فقد أمر كل الفتيات بارتداء الخمار والزهور، حتى يتزوجن بي في حفل علني مقدس. كانت ليلة كبرى من انتهاك قدسية الحب ووعدت اثنتان وعشرين منهن بالوفاء بالحب والخضوع وأجبتهن بالوفاء المقابل حتى ما بعد موتي.

---

(4)- نسبة إلى إقليم "جليقية" أو "جاليثيا" في الشمال الغربي من إسبانيا، ويعود هذا إلى أن معظم المهاجرين الإسبان في أمريكا اللاتينية ينتمون إلى هذا الإقليم.، وكثير منهم من المبشرين الكاثوليك (المترجم).

لم أستطع النوم بسبب ما كان علامة على شيء لا بد منه. فقد بدأت منذ الفجر في عدّ مرور الساعات من خلال دقات ساعة الكاتدرائية، إلى أن جاءت دقات الساعة السابعة المرعبة التي كان يجب أن أكون فيها في الكنيسة. بدأ جرس التليفون يدق في الثامنة، طويلاً ولحوحاً، وبلا توقف، طوال أكثر من ساعة. لم أمتنع فقط عن الرد: بل لم أتنفس. وقبل العاشرة بقليل دقوا على الباب، أولاً بالقبضات، وبعدها بصرخات أصوات معروفة وبغيضة. خشيت أن يحطموه لسبب خطير، لكن مع حلول الحادية عشرة خيّم على البيت صمت لا يحدث إلا بعد الكوارث الكبرى. حينها بكيت من أجلها ومن أجلي، وصليت من كل قلبي ضارعاً ألا ألتقي بها أبداً خلال ما تبقى لي من أيام. يبدو أن قديساً استمع إلى نصف تضرعي؛ فقد ذهبت "خيمينا" من البلاد في الليلة نفسها ولم تعد إلا بعد عشرين عاماً من ذلك اليوم، متزوجة ولديها سبعة أبناء كانوا يمكن أن يكونوا أبنائي.

بذلت جهداً كبيراً للحفاظ على مكانتي ومقالي في صحيفة "الدياريو دي لا باث" بعد تلك الإهانة الاجتماعية. لكن لم يكن هذا سبباً في نقل مقالي إلى الصفحة الحادية عشرة، بل سببه الاندفاع الأعمى الذي دخل به القرن العشرين. فقد أصبح التقدم

أسطورة المدينة. تغير كل شيء، الطائرات طارت وألقى رجل بكيس الخطابات من طائرة "جونكر" واخترع البريد الجوي.

الشيء الوحيد الذي بقي على حاله هو مقالاتي في الصحيفة. وهاجمتها الأجيال الجديدة، كمن يهاجم مومياء من الماضي يجب تدميرها، لكني حافظت عليها بنفس لهجتها، دون تنازل، وضد رياح التغيير. لم أستمع لأي شيء، فقد كنت قد أكملت الأربعين، ولكن المحررين الشبان كانوا يطلقون عليّ "مقال اللقيط". استدعاني مدير التحرير وقتها إلى مكتبه ليطلب مني أن أغيّر اللهجة حسب التيارات الجديدة. فقال لي بهدوء كما لو كان التقدم قد اخترعوه في التو واللحظة: العالم يتقدم. قلت له: نعم، يتقدم، لكنه يظل يدور حول الشمس. إلا أنه حافظ على مقالي الأسبوعي لأنه لم يجد من يصغ الأخبار. واليوم أعرف أنني كنت على حق، ولماذا كنت على حق. المراهقون من جيلي تحت وطأة شراهتهم بالحياة نسوا الحلم بالمستقبل، إلى أن علّمهم الواقع أن المستقبل لم يكن كما حلموا به، فاكتشفوا الحنين. وهناك كانت مقالات الأحد، كأثر معماري بين أنقاض الماضي، فانتبهوا إلى أنها لم تكن موجهة فقط لكبار السن بل موجهة للشباب الذين لم يخافوا من الشيخوخة. وحينها عاد المقال إلى صفحة الافتتاحيات، وفي بعض الأوقات الخاصة كان يُنشر مقالي في الصفحة الأولى.

من يسألني أُجيبه دائماً بالحقيقة: العاهرات لم يتركن لي وقتاً

لكي أكون متزوجاً. مع ذلك، يجب أن أعترف أنه لم تكن لدي هذه الإجابة حتى اليوم الذي أكملت فيه عامي التسعين، عندما خرجت من بيت "روسا كاباركاس" بالإصرار على ألا أصنع قدري أبداً بعد الآن. كنت أشعر أنني آخر. اختل عقلي برؤيتي للناس متكئة على الحواجز الحديدية المحيطة بالحديقة العامة. التقيت "دميانة" كانت تنظف الأرضية، منحنية في الصالة، وشباب سمانتيها في عمرها هذا أيقظ رعشة من زمن مضى. أعتقد أنها شعرت بذلك لأنها غطت نفسها بالفستان. لم أستطع قمع الرغبة في سؤالها: قولي لي شيئا، "دميانة" أي شيء تتذكرين؟. قالت: لم أكن أتذكر أي شيء، لكن سؤالك يذكرني بشيء. شعرت أنا بضغط في الصدر. قلت لها: لم أعشق أبداً. ردت عليّ على الفور: أنا، نعم عشقت. أنهت الحديث دون أن تتوقف عن عملها بقولها: بكيت طوال اثنين وعشرين عاما من أجلك. قفز قلبي. بحثاً عن مخرج كريم، قلت لها: كان يمكننا أن نكون زوجين طيبين. قالت هي: من السيئ أن تقول لي ذلك الآن، لأنني لا لم أعد أصلح لك الآن. عندما خرجت من البيت، قالت لي بطريقة أكثر طبيعية: حضرتك لن تصدقني، أنا لا أزال عذراء، شكرا لله.

بعدها بقليل اكتشفت أنها تركت ورودا حمراء في كل

البيت، وبطاقة على المخدة: ***أرجو أن تصل إلى المية***[5]. بهذا الطعم الرديء جلست لإكمال المقال الذي كنت قد تركته ناقصاً في اليوم السابق. أنهيته في نفسٍ واحد في أقل من ساعتين واستطعت أن ألوي عنقه ليعبر عن حالتي الداخلية دون أن تبدو عليّ مظاهر البكاء. لكن بضربة إلهام متأخرة قررت إنهاءه بالإعلان عن أنني بهذا المقال أنهي بسعادة حياة طويلة وكريمة دون أن أرتكب سوءة موتي.

هدفي كان أن أترك المقال في بوابة الصحيفة والعودة إلى البيت. لكني لم أتمكن من ذلك. كان العاملون بكاملهم ينتظرونني ليحتفلوا بعيد ميلادي. كان المبنى تحت الترميم، والسقالات والحطام الباردة في كل مكان، لكنهم أوقفوا العمل بسبب الحفل. على مائدة نجار كانت المشروبات معدة لتناول النخب والهدايا ملفوفة في ورق ملون. ذاهلاً من أضواء فلاشات الكاميرات استحوذت على كل الصور التذكارية.

سعدت لوجود كل محرري الإذاعة والصحف الأخرى بالمدينة: "لا برنسا" الصباحية المحافظة، و"الهيرالدو" الصباحية الليبرالية، و"الناسيونال" المسائية الفضائحية التي تحاول تخفيف

(5)-كلمة "المية" بدلاً من "المائة" مقصودة في الترجمة ،لأن الكاتب حاول أن يدلل بها على أن "دميانة" لم تكن تجيد الكتابة فكتبتها خطأ في النص الروائي. (المترجم).

توتر النظام العام بحكايات عاطفية. لم يكن غريباً أن يتجمعوا معاً، لأنه داخل روح المدينة كان مقبولاً أن تستمر علاقات الصداقة بين جميع العاملين بينما "المارشالات" يمارسون الحروب بالافتتاحيات.

وأيضاً كان هناك الرقيب السيد "خيرونيمو اورتيجا"، خارج ساعات عمله، الذي كنا نطلق عليه "***رجل التاسعة البغيض***"؛ لأنه كان يصل في تلك الساعة من الليل بقلمه الدموي ذي السن الحاد. يظل هناك إلى أن يتأكد من أنه لم يكن هناك حرف واحد لم يوافق عليه في طبعة الصباح. كانت لديه كراهية خاصة تجاهي، سببه كبريائي كلغوي، أو لأنني أستخدم كلمات إيطالية بلا تنصيص أو تمييز عندما أرى أنها أكثر تعبيراً من القشتالية، كما يجب أن يكون الاستخدام المعروف بين اللغات المشتقة من أصل واحد. بعد معاناة استمرت أربع سنوات، انتهينا إلى قبوله كما لو كان سوء نيتنا نحن أنفسنا.

حملت السكرتيرات إلى الصالون طبق حلوى بتسعين شمعة مشتعلة واجهت خلالها سنوات حياتي لأول مرة. ابتلعت دموعي عندما غنوا لي أغنية النخب، وتذكرت الصبية بلا أي سبب. لم يكن ضرباً من الكراهية بل تفهماً متأخراً للإنسانة التي كنت أنتظر أن أتذكرها مرة أخرى. بعد انتهاء الاحتفال وضع أحدهم

في يدي سكيناً لأقطع الحلوى. خوفاً من السخرية لم يجرؤ أحد على إلقاء كلمة. أنا كنت أُفضل الموت على الرد عليه. ولإنهاء الحفل، مدير التحرير الذي لم أكنّ له أي حب، أعادنا إلى الواقع المرير. قال لي: والآن نعم، أيها التسعيني الشهير، أين مقالك؟.

الحقيقة أنني كنت أشعر به يحرق جيبي بنار مشتعلة طوال المساء، لكن الانفعال الذي تعمقَ فيّ حتى لا أُفسد الحفل لم يترك لي مجالاً للإعلان عن رفضي. قلت: هذه المرة لن يكون هناك مقال. امتعض مدير التحرير لخطأ ما كان مقبولاً من القرن السابق. وحتى نفهم الحال تماماً، قلت له، لقد مررت بليلة صعبة إلى درجة أنني استيقظت مخدراً من التعب. قال هو بحسه الساخر المرير: إذن كان عليك أن تكتبه. القراء يحبون معرفة الحياة عند بلوغ التسعين من شخص يعيشها. فردّت إحدى السكرتيرات. قالت: ربما كان سرّاً لذيذاً، ونظرتْ إليّ بدلال: أليس كذلك؟، موجة ساخنة ضربتني على وجهي. اللعنة، فكرت، يا له من خائن هذا الخجل. سكرتيرة أخرى، متألقة، أشارت نحوي بإصبعها. يا للروعة! لا تزال لديه رجولة ليخجل. أشعل تدخلها فيّ خجلاً على خجل. ربما كانت ليلة من التهجم، قالت السكرتيرة الأولى: أنا أحسدك!، وقبلتني قبلة ظلت مرسومة على خدي. تسابق المصورون. مختنقاً، سلمت المقال

لمدير التحرير، وقلت له إن ما قلته من قبل كان على سبيل المزاح، تفضل، وهربت مصعوقاً بآخر دفعة من التصفيق، كي لا أكون حاضراً عندما يكتشفون أنها استقالتي بعد نصف قرن من الإبحار.

استمر تشوقي طوال تلك الليلة عندما نزعت في البيت الورق الذي يلتف على الهدايا. عمال التوضيب لم ينجحوا في اختيار هديتهم بتقديمهم صانعة القوة الكهربائية تماماً مثل الثلاث التي قدموها لي في أعياد ميلادي السابقة. ومصففو الأحرف قدموا لي تفويضاً لاستلام قط من حظيرة البلدية. والإدارة قدمت لي أرباحاً رمزية. والسكرتيرات أهدينني ملابس داخلية من الحرير مطبوع عليها آثار قبلات، وبطاقة يعرضن عليّ فيها نزعها عني. وخيل لي أن أحد امتيازات الشيخوخة هي الإثارة التي تسمح للصديقات من الفتيات أن يعتقدن أننا خارج العمل.

لم أعرف مطلقاً من الذي أرسل لي أسطوانة مسجل عليها أربع وعشرين مقطوعة لـــ"شوبان" بقيادة "ستيفان إسكيناس". والمحررون في معظمهم أهدوني كتباً عن الموضة. لم أكد أفتح جميع الهدايا حتى اتصلت بي "روسا كاباركاس" تليفونيّاً لتسألني السؤال الذي لم أكن أود سماعه: ماذا حدث لك مع الصبية؟، قلت لها دون تفكير: لا شيء. فقالت "روسا كاباركاس": هل

تعتقد أنه لا شيء إذا كنت حتى لم توقظها؟، إن المرأة لا تغفر أبداً للرجل الذي يحتقرها يوم دخولها. أنا بررت الأمر بأن الصبية لم تكن متعبة فقط من عملها في تركيب الأزرار، وربما كانت تتصنع النوم خوفاً من المرور بهذه الخطوة المؤلمة. قالت "روسا": الأخطر أنها تعتقد حقيقة أنك لا تصلح، ولا أحب أن تنشر هذا في أركان الأرض الأربعة.

لم أمنحها الفرصة لتفاجئني. رغم أن الأمر كان كذلك، قلت لها إن حالتها كانت سيئة إلى درجة ما كان يمكن التعامل معها لا نائمة ولا مستيقظة: إنها كلحم المستشفيات. خفضت "روسا كاباركاس" من لهجتها: الذنب ذنب التسرع الذي انهينا به الاتفاق، لكن يمكن علاج ذلك، وسترى. وَعَدَتْ بأن تستجوب الصبية، ولو كان الأمر هكذا ستجبرها على إعادة المال. ما رأيك؟. قلت لها: دعي الأمر على حاله. لم يحدث أي شيء، والعكس فقد كانت تجربة أكدت لي أنني لم أعد أصلح لأي شيء. في هذا الاتجاه فالصبية لديها كل الحق: فأنا لم أعد أصلح. وضعتُ سماعة التليفون، مفعماً بإحساس تحرر لم أعرفه في حياتي من قبل، وأخيراً تمكنت من الهرب من قلق سيطر عليّ منذ أن كنت في الثالثة عشرة.

في السابعة ليلاً كنت ضيف الشرف في كونشيرتو "جاك

تابولت" و"الفريد كورتوت" في صالة الفنون الجميلة، بعزف رائع لسوناتة الكمان والبيانو التي أداها "ثيسار فرانك"، وما بين الفصلين استمعت إلى الإعجاب المباشر. المايسترو "بدرو بيافا"، مايسترو موسيقي عظيم، أخذني عنوة إلى غرف الموسيقيين ليقدمني إلى العازفين. وابهرني إلى درجة أنني حييتهم على عزفهم لسوناتة "شومان" التي عزفوها، وصحح لي أحدهم الاسم بطريقة مخجلة. والخطأ الذي ارتكبته في الخلط بين السوناتتين كشف جهلي، وازداد الأمر خطراً عندما حاولت شرح الأمر في مقال الأحد التالي الذي تناولت فيه الحفل الموسيقي بالنقد.

شعرت لأول مرة في حياتي الطويلة بأنني قادر على قتل أحد. عدت إلى البيت مهموماً بالشيطان الصغير الذي ينفخ في الأذنين بالإجابات المدمرة التي لم نرد بها في وقتها، فلا القراءات ولا الموسيقى خففا من غضبي. لحسن الحظ أن "روسا كاباركاس" أخرجتني من الهذيان بصرخة في التليفون: أنا سعيدة بالصحيفة، لأنني لم أعتقد أنك أكملت التسعين بل مائة. أجبتها بحدة: لهذا أنا ضائع كما ترين؟ قالت هي: على العكس، إن ما فاجأني كان رؤيتك في صحة ممتازة. إنه لأمر طيب أنك لست من كبار السن غير الناضجين الذين يزيدون من أعمارهم حتى يعتقد الآخرون أنهم في حالة جيدة. ثم غيرت من لهجتها: أحتفظ لك بهديتك. فاجأتني حقيقة فقلت: ما هي؟. قالت هي: الصبية.

لم أدع لنفسي لحظة واحدة للتفكير. قلت لها: شكراً، لكن تلك حكاية من الماضي. لم تحاول التعليق: سأرسلها إلى بيتك ملفوفة في ورق صيني ومغسولة بالصندل على البخار، كله مجاناً. تمسكت برأيي، فيما دخلت هي في شرح صعب جعلني أصدق جديتها. قالت إن الصبية كانت في حالة سيئة جداً في ذلك اليوم الجمعة لأنها كانت قد حاكت مائتي زرار بالإبرة والكُشتبان. وأن خوفها من الاغتصاب الدموي كان حقيقياً، لكنها الآن معدة للتقديم على المذبح. وإنها في ليلتها معي استيقظت لتذهب إلى الحمّام وإنني كنت حينها أغط في نوم عميق جداً، وقد شعرتْ بالشفقة عليّ فلم توقظني، وعندما استيقظتْ في الصباح من جديد كنت قد ذهبتُ. شعرتُ بالإهانة مما بدا لي كذباً لا طائل من ورائه. حسناً، واصلت "روسا كاباركاس": وإنه رغم ذلك، فالصبية نادمة. المسكينة، تقف الآن أمامي. هل تريد أن تتحدث معها؟. قلت لها: لا، بحق الله.

كنتُ قد بدأت الكتابة عندما اتصلت سكرتيرة الصحيفة. الرسالة كانت أن المدير يريد أن يراني في اليوم التالي في الحادية عشرة صباحاً. وصلتُ في الموعد تماماً. ضجيج ترميم المبنى لم يكن يبدو محتملاً، كان الهواء مزعجاً بضربات الفؤوس، وغبار الأسمنت ودخان القطران، لكن العاملين في

التحرير كانوا قد تعلموا التفكير في رتابة الفوضى. مكاتب المدير، كانت على العكس، باردة وهادئة، كانت تبدو في بلد مثالي غير بلدنا.

"ماركو توليو" الثالث، بملامحه المراهقة، عندما رآني أدخل نهض واقفاً على قدميه، دون أن يقطع حواراً تليفونيّاً، مد لي يده ليصافحني من أعلى المكتب وأشار إليّ بالجلوس. ذهبتُ في تفكيري إلى أنه لم يكن هناك أحد على الجانب الآخر من الخط، وأنه يقوم بهذه الحركة الهزلية ليقنعني بأهميته، لكنني اكتشفت فجأة أنه كان يتحدث مع المحافظ، وكان حقيقة حواراً صعباً بين عدوين محكوم عليهما بالتفاهم. إضافة إلى، أنني أعتقد أنه حاول أن يبدو حازماً أمامي، رغم أنه في الوقت نفسه ظل واقفاً على قدميه بينما كان يتحدث مع السلطة.

يبدو عليه اهتمامه بهندامه. أكمل التاسعة والعشرين قبل قليل ويتحدث أربع لغات وحصل على ثلاث شهادات عليا دولية، بعكس أول مدير تحرير قضى حياته كلها في منصبه، جده لأبيه، الذي مارس الصحافة بعد أن كوَّن ثروة من التجارة في الرقيق الأبيض. كانت له طبائع صعبة، كان يحاول دائماً أن يبدو هادئاً وجاداً، والشيء الوحيد الذي كان يكشف حقيقته تلك الرنة المزيفة في صوته. يرتدي جاكت رياضياً بزهرة أوركيد

في العروة، وكل ما يفعله كان يبدو كشخص طبيعي، لكن لا شئ يبدو عليه أنه قابل للحياة في الشارع بل في ربيع مكاتبه. أنا، الذي أمضيت ما يقرب من الساعتين في ارتداء ملابسي، شعرتُ بعار الفقر مما زاد من حدة غضبي.

مع كل هذا، فإن السم القاتل كان في صورة بانورامية لمجموع العاملين التقطتْ في الاحتفال السنوي الخامس والعشرين لإنشاء الصحيفة، ومرسوماً عليها علامة الصليب على كل من مات منهم. أنا كنت الثالث إلى اليمين، مرتدياً قبعة عامل محجر، وبربطة عنق بعقدة كبيرة بلؤلؤة في المشبك، وأول شارب يشبه شوارب كولونيل مدني أطلقته عندما كنت في الأربعين، ونظارات معدنية تشبه نظارات طلاب السلك الكنسي والتي لم أعد في حاجة إليها بعد نصف قرن. كنتُ قد شاهدتُ هذه الصورة معلقة لسنوات طويلة في مكاتب مختلفة، لكن في تلك اللحظة فقط كنت حساساً لما تعنيه: من بين الثمانية والأربعين من العاملين الأصليين لم يبق منا أحياء سوى أربعة، وأصغرنا يكمل عقوبة من عشرين عاماً سجناً لارتكابه جريمة قتل ذهب ضحيتها عدة أشخاص.

أنهى المدير مكالمته، وفاجأني ناظراً إلى الصورة وابتسم. وقال: الصلبان لم أضعها أنا، وأعتقد أنها تنم عن حس سيئ.

جلس إلى المكتب وغير من لهجته: اسمح لي أن أقول إن حضرتك الإنسان الأكثر قدرة على تقديم المفاجآت. وأمام دهشتي، أعلن مسبقاً: أقول هذا بسبب الاستقالة. لم أكد أقول: إنها حياة طويلة. رد هو انه لهذا السبب تماماً إنها لم تكن الحل المقبول. لقد رأى أن المقال ممتاز، وكل ما قلته عن الشيخوخة كان أفضل ما قرأه في حياته على الإطلاق، ولذلك ما كان يجب إنهاؤه بقرار يبدو وكأنه موت مدني. قال: لحسن الحظ، إن "*رجل التاسعة البغيض*"، قرأه عندما كان مطبوعاً في صفحة الافتتاحيات، ورأى أنه مقال غير مقبول. ودون أن يستشير أحد شطبه من أعلى إلى أسفل بقلمه التفتيشي. وعندما علمتُ هذا الصباح أمرت بإرسال خطاب احتجاج إلى المحافظة. لقد كان هذا واجبي، ولكن فيما بيننا، أستطيع أن أقول لحضرتك أني أدين بالشكر لتسلط الرقيب. لأنني لم أكن مستعداً لقبول رفض المقال. لذلك أرجوك بكل روحي... لا تغادر السفينة في أعالي البحار. وأنهى حديثة بطريقة رائعة: لدينا الكثير لنقوله عن الموسيقى.

رأيتُ أنه مصّر على موقفه، إلى درجة أنني تجرأت على زيادة حدة الخلاف بسبب مسلٍ. المشكلة، في الحقيقة، أنني لحظتها لم أجد سبباً مقبولاً لأترك الساقية، وأرعبتني فكرة

الموافقة مرة أخرى لمجرد كسب الوقت. اضطررتُ إلى الضغط على نفسي حتى لا تبدو عليّ علامات الانفعال التي تكاد تدفعني إلى البكاء. ومرة أخرى، كما هو الحال دائماً، اتفقنا على بقاء الحال على ما هو عليه بعد سنوات طويلة.

الأسبوع التالي، محبوسا في حالة ناتجة عن التشوش أكثر منها عن الفرح، مررت على حظيرة البلدية لاستلام القط الذي أهداني إياه عمال الطباعة. علاقتي بالحيوانات سيئة جداً، نفس سبب علاقتي مع الأطفال قبل أن يبدءوا في تعلم الكلام. أعتقد أن أرواحهم خرساء، وليست أسماعهم، لكني لا أستطيع احتمالهم لأنني لم أتعلم التعامل معهم. أعتقد أنه ليس من الطبيعي أن يتفاهم الإنسان مع كلب أكثر من تفاهمه مع زوجته، وأن يعلمه الأكل والتخلي عن طعامه في ساعات محددة، أن يجيب عن الأسئلة ويشاركه في آلامه. لكن عدم استلام قط الطباعين كان يمكن أن يكون كارثة، بالإضافة إلى أنه كان قطاً جميلاً، شعره وردي ولامع وعيناه مضيئتان، ومواؤه يكاد يقارب الكلام. وضعوه لي في سلة من القصب مع شهادة بأصله وكتيب لشرح كيفية التعامل معه، تماماً كما لو كان دراجة هوائية.

دورية عسكرية كانت تتأكد من هويات المارة قبل تركهم يعبرون حديقة "سان نيكولاس" العامة. لم أشهد شيئاً مماثلاً، ولا أن أتخيل شيئاً قاتلاً مثل علامات شيخوختي. كانت دورية مكونة

من أربعة، تحت إمرة ضابط مراهق تقريباً. أعضاء الدورية من أهل الصحراء، صعبي المراس وصامتين وتفوح منهم رائحة كريهة. كان الضابط يراقبهم جميعاً بوجنتين محترقتين بفعل التعرض للشمس على الشواطئ الأندنيية. بعد تفحص هويتي وبطاقتي الصحافية سألني عن ما أحمل في السلة. قلتُ له: قِط. أراد أن يراه. رفعت غطاء السلة بكل الحرص حتى لا يهرب، لكن أحد رجال الدورية أراد أن يرى إن كان هناك شيء آخر في داخل السلة، فخربشه القط. تدخل الضابط. قال: إنه نوع رائع. داعبه بينما كان يهمهم بشيء، ولم يهاجمه القط ولا حتى اهتم به. سأل: كم عمره؟، قلت له: لا أعرف. لقد أهدوني إياه على التو. قال: أسأل حضرتك لأنه يبدو عجوزاً، عشر سنوات ربما. أردت أن أسأله كيف عرف ذلك، وأسأله أيضاً عن أشياء أخرى، لكن طريقته اللطيفة في التعامل وحديثه الطلق لم يجعلاني أشعر بالارتياح للحديث معه. قال: أعتقد أنه قِط مهجور مرّ بأوضاع سيئة كثيرة. عليك بمراقبته، فهو غير مرتاح لحضرتك لكن حضرتك مرتاح له، اتركه، حتى يكتسب ثقتك. أغلق الضابط السلة، وسألني: ماذا تعمل حضرتك؟. أنا صحافي. منذ متى؟. قلت له: منذ قرن من الزمان. قال هو: لا أشك في ذلك. صافحني وودعني بجملة يمكن أن تعني نصيحة كما تعني تهديداً:

– احترس كثيراً.

فصلتُ خط التليفون عند منتصف النهار لأبقى منفرداً مع الموسيقى في برنامج لذيذ: رابسودية الكلارنيت وأوركسترا فاجنر، بساكسفون "ديبوسي" والخماسية الوترية لـ"بروكنر"، التي تعتبر فردوساً ساكناً في أعماله. وفجأة وجدتُ نفسي ملتفّاً في ضباب المكتب. شعرت بشيء ينزلق تحت طاولتي لم يكن يبدو جسداً حيّاً بل حضوراً غير طبيعي يلمس قدمي، فقفزتُ صارخاً. لقد كان القط بذيله الجميل المنتفش، وبطئه الغريب وأصالته الأسطورية، ولم أتمكن من التغلب على الارتعاش خوفاً من البقاء وحيداً في البيت مع كائن حي إن لم يكن بشريّاً.

عندما أعلنتْ ساعة الكاتدرائية السابعة، كانت هناك نجمة وحيدة ولامعة في السماء الوردية، وأطلقتْ سفينة صافرة وداع حزينة، وشعرتُ باختناق كبير في الحلق لقصص الحب التي كان يمكن أن تحدث ولم تحدث. لم أحتمل أكثر من هذا. رفعتُ سماعة التليفون وقلبي يكاد يقفز من حلقي، ضربتُ الأرقام الأربعة الأولى ببطء شديد حتى لا أخطئ، وعند دقة الجرس الثالثة تعرفتُ على الصوت. قلت لها بزفرة ارتياح: حسن يا امرأة، اغفري لي سخطي هذا الصباح. قالت هي بهدوء: لا عليك، كنت في انتظار مكالمتك. حذرتها: أريد أن تنتظرني الصبية كما جاء بها الله إلى الدنيا وبدون ورنيش على وجهها.

أطلقت ضحكتها الرنانة. وقالت: لك ما تريد، لكنك ستفقد لذة تعريتها قطعة قطعة، كما يحب كبار السن، لا أعرف لماذا يعشقون هذا. قلت لها: أنا أعرف لماذا، لأنهم يشعرون بأنهم أكبر سناً. وافقت على كلامي.

قالت:

– حسن، إذن الليلة في العاشرة تماماً، قبل أن يبرد الصيد.



-3-

كيف يمكنني أن أسميها؟، لم تخبرني السيدة عن اسمها، عندما كانت تحدثني عنها كانت تقول فقط: الصبية. وأنا حولت هذه الإشارة إلى اسم الفتاة الأول، تماماً مثل حبة عيني أو السفينة الصغيرة. إضافة إلى أن "روسا كاباركاس" تسمي ربيباتها أسماء مختلفة حسب كل زبون. بالنسبة لي كنت أتسلى بمحاولة التعرف على أسمائهن من خلال وجوههن، وكنت متأكداً منذ البداية أن الصبية لها اسم طويل مثل "فيلومينا" أو "ساتورنينا" أو "نيكولاسا". عندما كنت أفكر في هذا استدارت هي نصف استدارة وأولت ظهرها لي، وبدا لي أنها تركت بحيرة من الدم بحجم وشكل جسدها. كان فزعاً لحظياً إلى أن تأكدتُ من أنها كانت رطوبة العرق على الفراش.،

كانت "روسا كاباركاس" قد نصحتني أن أتعامل معها بحرص، فلا تزال تشعر برعب المرة الأولى. وأكثر من هذا: أعتقد أن مهابة الطقس زادت من حدة الخوف مما جعلهم

يزيدون من الجرعة المخدرة، فقد كانت تنام باطمئنان فكان من المؤلم إيقاظها دون فزع. لذلك بدأت أجففها بالفوطة وأهمس لها بأغنية "ديلجادينا"، الابنة الصغرى للملك التي كان يعشقها أبوها. كلما جففت جزءاً بيّنت لي الأجزاء الغارقة في العرق على وقع غنائي: ***ديلجادينا، ديلجادينا، أنت ستكونين رهينتي المحبوبة***. كانت لذة لا حدود لها فقد كانت تعرق مجدداً في جانب بينما كنت أجفف جانبها الآخر، حتى لا تنتهي الأغنية أبداً. كنت أغني لها في سمعها: ***استيقظي، ديلجادينا، وارتدي فستانك الحريري***. وفي النهاية، عندما عثر عليها خدم الملك ميتة من العطش في سريرها، اعتقدتُ أن صبيتي كانت على وشك الاستيقاظ عندما تسمع الاسم. لذلك فقد كانت هي: ديلجادينا.

عدتُ إلى السرير بملابسي الداخلية المطبوع عليها القبلات واستلقيتُ إلى جانبها. نمتُ حتى الخامسة على هديل تنفسها الوديع. ارتديت ملابسي بسرعة دون أن أغتسل، وعندها شاهدت الحكم مكتوباً بقلم أحمر الشفاه على مرآة الحمّام: ***النمر لا يأكل بعيدًا***. أعرف أن تلك الكتابة لم تكن هناك في الليلة السابقة ولا يمكن لأحد أن يدخل الغرفة، لذلك فهمتها على أنها هدية الشيطان. فاجأني على الباب رعد مرعب، وامتلأت الغرفة برائحة أرض مبتلة. لم يكن لدي الوقت الكافي للهروب دون أن يلحق بي الأذى. قبل أن أعثر على سيارة أجرة انهمرت أمطار

رعدية كبيرة، من تلك التي اعتادت على نشر الفوضى في المدينة ما بين شهري مايو وأكتوبر، لأن رمال الشارع المشتعلة التي تهبط باتجاه النهر تتحول إلى تيارات تجرف ما تجده في طريقها. مياه سبتمبر الغريب ذاك، بعد ثلاثة أشهر من الجفاف، كان يمكنها أن تكون كريمة كما هي مدمرة.

ما إن فتحت باب البيت حتى قابلني إحساس فيزيقي بأنني لم أكن وحيداً. تمكنت من مشاهدة أثر القط الذي قفز من الكنبة وانساب عبر الشرفة. لا تزال في طبقه بقايا الطعام الذي قدمتُه له. رائحة بوله في الأركان وبرازه الساخن كان قد لوث كل شيء. كرست نفسي لدراسته كما درست اللغة اللاتينية. يقول الكتيب إن القطط تحفر في الأرض لتخفي بقاياها، وإنها في البيت الذي لا فناء له، مثل هذا البيت، تفعلها بأصص النباتات، أو في أي مخبأ آخر. الملائم كان إعداد صندوق منذ اليوم الأول فيه رمل لتعليمه العادة، ونفذت ذلك. يقول أيضاً إن أول ما تفعله القطط في بيتها الجديد تحديد حدودها بالتبول في جميع الأركان، وهذا ما كان في هذه الحالة، لكن الكتيب لا يقول كيف يمكن تجنب ذلك. اتبعت التعليمات حتى اعتاد على عاداته البدائية، لكني لم أستطع العثور على مخابئه السرية، وأماكن استراحته، ولا أسباب تغير أحواله المتبدلة. أردت أن أعلمه الأكل في ساعات معينة، واستخدام صندوق الرمل في الشرفة، وألا يصعد

على سريري بينما أنا أنام ولا تشمم الأطعمة على الطاولة، ولم أتمكن من إفهامه أن البيت بيته كحق طبيعي وليس كغنيمة حرب. لذلك فقد تركته على هواه.

بحلول المساء واجهت وابل المطر، الذي كانت رياحه الرعدية تهدد بزلزلة البيت. عانيت هجوم الرعود المتوالية، كانت جمجمتي تؤلمني وأُصِبتُ بالحمى، لكنني كنت أشعر أن قوة وجزماً يسيطران عليّ لم أحظ بهما في أي من مراحل العمر ولا لأي سبب. وضعت جرادل على الأرض لجمع المياه المتساقطة، وانتبهت إلى أنه قد ظهرت خروق جديدة لم تكن موجودة في الشتاء الماضي. أكبرها بدأت تغرق الجانب الأيمن من المكتبة. جريت لإنقاذ المؤلفين الإغريق واللاتينيين الذين كانوا يعيشون في ذلك الاتجاه، لكن عند رفع الكتب عثرت على اندفاع عالي الضغط يخرج من ماسورة مكسورة في داخل الحائط. سددتها بخرق كيفما استطعت لأجد الوقت الكافي لإنقاذ الكتب. صخب الماء وعواء الريح مسحا الحديقة العامة. وفجأة، هب برق مرعب ورعد متوال أشبعا الهواء برائحة كبريت قوية، حطم الهواء زجاج الشرفة وحطمت العاصفة البحرية مزاليج الأبواب ودخلت إلى داخل البيت. إلا أنه قبل عشر دقائق صفا الجو فجأة. وشمس رائعة أضاءت الشوارع المليئة بالحطام المتدافع، وعاد الحر.

بعد أن توقف انهمار المطر واصلت إحساسي بأنني لم أكن وحدي في البيت. وتفسيري الوحيد أنه كما أن هناك أحداثاً واقعية يمكن نسيانها، هناك أيضاً بعضها لم تقع مطلقا ويمكن أن تظل ذكراها كما لو أنها وقعت. فإذا استرجعت خطر وابل المطر فإنني لا أرى نفسي وحيداً في البيت بل كانت "ديلجادينا" ترافقني دائماً. شعرتُ بها قريبة مني في الليل، وكنت أحس همهمات تنفسها في غرفة النوم، وضربات وجنتها على مخدتي. فقط بهذه الطريقة فهمتُ أنه كان يمكننا أن نفعل الكثير في زمن قليل. تذكرتُني صاعداً على أرفف المكتبة وتذكرتُها هي مستيقظة بفستانها ذي الزهور تتلقى مني الكتب لوضعها بعيداً عن الخطر. كنت أراها تجري من مكان إلى آخر في البيت تتصارع مع العاصفة، مبتلة بماء المطر والماء يصل حتى كاحليها. أتذكر كيف أعدّت هي في اليوم الثاني إفطاراً لم يحدث أبداً، وكيف أنها أعدتْ الطاولة بينما أنا أجفف الأرضيات وأنظم غرق البيت. لم أنس أبداً نظرتها الغائمة بينما كنا نتناول الإفطار: لماذا عرفتني وأنت عجوز جداً؟. أجبتها بالحقيقة: العمر ليس ما نحن فيه بل ما نشعر به.

منذ ذلك الحين احتفظت بها في ذاكرتي بوضوح إلى درجة كنت أفعل بها ما أريد. كنت أُغير لون عينيها طبقاً للحالة النفسية: لون الماء عند الاستيقاظ، ولون العسل عندما تضحك،

ولون النار عندما أُغضبها. كنت أُلبسها طبقاً للسن والحالة التي تتوافق مع تغيرات حالتي النفسية: عروس عاشقة في العشرين من عمرها، عاهرة صالون في الأربعين، ملكة بابليون في السبعين، وقديسة في المائة. كنا نغني زوجيات من الحب لـ"بوتشيني"، وأغنيات لـ: أغوسطين لارا"، وتانجو لـ"كارلوس جارديل"، وتأكدنا مرة أخرى أن من لا يغنون لا يستطيعون تخيل سعادة الغناء. أعرف اليوم أن ذلك لم يكن خيالاً، بل معجزة أخرى للحب الأول في حياتي في التسعين من العمر.

بعد أن أصبح البيت منظماً هاتفتُ "روسا كاباركاس". عندما سمعتْ صوتي هتفت: يا إلهي القُدُس! اعتقدتُ أنكَ غرِقت. لم أتمكن من فهم أن تقضي الليلة مرة أخرى مع الصبية دون أن تلمسها، لك كل الحق في ألا تعجبك، لكن على الأقل عليك أن تتصرف كرجل ناضج. حاولت أن أشرح لها الأمر، لكنها غيرت الموضوع بلا مقدمات: على أي حال أعددتُ لكَ أخرى أكبر قليلاً وجميلة وعذراء أيضاً. أبوها يريد أن يبادلها ببيت، لكن يمكن المفاوضة معه للحصول على تخفيض. لقد تجمد قلبي. أعلنت احتجاجي: هذا لا يمكن أن يحدث، أريدها هي نفسها كالعادة، بلا إخفاقات ولا عراك، ولا ذكريات سيئة. سيطر على الخط صمت، وأخيراً جاءني الصوت المستسلم كما

لو كانت تقول لنفسها: حسن، ربما يكون هذا ما يسميه الأطباء جنون الشيخوخة.

ذهبتُ في العاشرة ليلاً بصحبة سائق معروف بفضيلته الغريبة ألا يسأل. أخذت معي مروحة متنقلة ولوحة من أعمال "رفيرا"، المحبوب "فيجيريتا" وشاكوشاً ومسماراً لتعليقها. توقفت في الطريق لشراء فرشاة أسنان، ومعجون أسنان، وصابون معطر، وماء كولونيا فلوريدا، وقطع من حلوى العرقسوس. أردت أن آخذ معي زهرية وباقة من الورود الصفراء لأضيفها إلى الزهور الورقية، لكنني لم أجد حانوتاً مفتوحاً فاضطررت إلى سرقة باقة من الزهور حديثة التفتح من إحدى الحدائق الخاصة.

اتباعاً لتعليمات السيدة وصلت حينها من خلال الشارع الخلفي، من ناحية المجرى المائي، حتى لا يراني أحد وأنا أدخل من باب المزرعة. حذرني السائق: احترس، يا حكيم، في هذا البيت يقتلون. أجبته: لو كان في سبيل الحب فلا يهم. كان الفناء غارقاً في الضباب، لكن كانت هناك أنوار الحياة في النوافذ وخليط من الموسيقى في الغرف الست. في غرفتي، كان الصوت أكثر ضجيجاً، وميزت صوت "بدرو بارجاس" الدافئ، مغني تينور أمريكا، يؤدي أغنية لـــ"ميجيل ماتاموروس". شعرت أنني على وشك الموت. دفعت الباب وتنفسي يكاد ينقطع

ورأيت "ديلجادينا" في السرير كما كانت في الذكريات: عارية ونائمة في سلام مقدس على جانب القلب.

قبل أن أضطجع نظمت التواليت، ووضعت المروحة الجديدة مكان الصدئة، وعلقت اللوحة في مكان يمكنها أن تراها من السرير. تمددت إلى جوارها وتحسستها شبراً شبراً. كانت هي نفسها التي كانت تسير في بيتي: الأيدي نفسها التي تتحسس باللمس في الظلام، الأقدام نفسها ذات الخطوات الخفيفة التي تختلط بخطوات القط، رائحة العرق نفسه في فراش سريري، واصبع الكُشتبان. يا للغرابة: رؤيتها ولمسها بلحمها وعظامها، أرى أنه أقل واقعية منها في ذكرياتي.

قلت لها: توجد لوحة على الحائط المقابل، رسمها "فيجوريتا"، إنه رجل نحبه كثيراً، أفضل راقص في البيوت السرية لم يكن هناك مثله أبداً، كان طيب القلب إلى درجة أنه كان يشعر بالشفقة على الشيطان. رسمها بورنيش السفن على قماش محترق لطائرة سقطت في "سييرا نيفادا" بمنطقة "سانتا ماريا" وبفرشاة صنعها بنفسه من شعر كلبه. المرأة المصورة هي راهبة اختطفها من دير وتزوج بها. سأتركها هنا، حتى تكون أول شيء ترينه عندما تستيقظين.

لم تكن قد غيّرت وضعها عندما أطفأتُ النور، في الواحدة

ليلاً، وكان تنفسها رقيقاً حتى إنني قست ضغطها لأشعر أنها على قيد الحياة. كان الدم يجري في عروقها بجريان أغنية مؤكداً في أقصى أركان جسدها ويعود إلى القلب نقياً بالحب.

قبل أن أذهب عند الشروق رسمت خطوط يدها في ورقة، وأعطيتها لـ"ديفا صهيبي" لتتعرف على روحها. وكانت على هذا النحو: إنها تقول فقط ما تفكر فيه. ماهرة في الأعمال اليدوية. لها علاقة بشخص ما توفي، والذي تنتظر منه المساعدة، لكنها مخطئة، المساعدة التي تبحث عنها قريبة منها جداً. لم تتزوج من قبل، لكنها ستموت عجوزاً ومتزوجة، لها الآن رجل أسمر، ولكنه لا يمكن أن يكون رجل حياتها. يمكنها أن تنجب ثمانية أبناء، لكنها ستكتفي بثلاثة فقط. عند بلوغها الخامسة والثلاثين، لو أنها نفذت ما يمليه عليها القلب وليس العقل، ستحصل على أموال كثيرة، وستحصل في الأربعين على إرث. ستسافر كثيراً. لها حياة مزدوجة وحظاً مزدوجاً، ويمكنها أن تقرر مصيرها بنفسها. تحب تجربة كل شيء، بدافع الفضول، لكنها ستندم لو لم تتبع ما يمليه القلب.

تحت وطأة الحب قمت بإصلاح ما تسببت في إفساده العاصفة، وانتهزت الفرصة لعمل إصلاحات أخرى كثيرة كانت مُرجأة منذ سنوات نتيجة الإفلاس أو الإهمال. وأعدت تنظيم المكتبة، طبقاً للنظام الذي قرأت به الكتب. وأخيراً تخلصت من

البيانولا كأثر تاريخي ومعه الأسطوانات المائة الكلاسيكية، واشتريت جرامفون مستخدم لكنه أفضل من الذي كنت أمتلكه، وبمخارج صوت نقية جداً أضفت على مناخ البيت فخامة. أصبحت على شفا الإفلاس لكني كنت سعيداً لأنني لا زلت حياً في عمري هذا.

استعاد البيت عافيته فيما كنت أنا أبحر في حب "ديلجادينا" بتركيز وسحر لم أعرفهما في حياتي السابقة. بفضلها واجهت للمرة الأولى كينونتي الطبيعية خلال مرور سنواتي التسعين. اكتشفت أن تعلقي بكل شيء كان في محله، وبكل قضية في وقتها، وكل كلمة في سياقها، لم يكن ذلك جائزة مستحقة لذاكرة منظمة، بل على العكس تماماً، فقد كان نظاماً محكماً في التمثيل اخترعته أنا لإخفاء فوضويتي الطبيعية. اكتشفت أنني لم أكن منظماً بالطبيعة، بل كرد فعل لأخطائي، أبدو كريماً لإخفاء بخلي، وأنني أتظاهر بالحذر لإخفاء سوء نيتي، وأنني متعاطف حتى لا أطلق العنان لغضبي المكتوم، وأنني فقط محافظ على مواعيدي حتى لا يعرفون أن زمن غيري لا يعنيني. وأخيراً اكتشفتُ، أن الحب ليس حالة روحية بل صورة لها علاقة بالأبراج.

تغيرتُ وتحولتُ إلى آخر. حاولتُ إعادة قراءة الكلاسيكيين الذين وجهوني في المراهقة، ولم أستطع مواجهتهم. غرقتُ في

الآداب الرومانتيكية التي كرهتها عندما أرادت أمي فرضها عليّ بالقوة، وبفضلها انتبهتُ إلى أن القوة التي لا تقهر التي حركت العالم ليس الحب السعيد بل الحب المتناقض. عندما وقع تذوقي للموسيقى في أزمة اكتشفت تخلفي وشيخوختي، وفتحت قلبي للذة الصدفة.

ساءلت نفسي كيف أمكنني الغرق في هذا الدوار الأبدي الذي كنت أنا نفسي السبب فيه وأخافه. كنت أطفو بين سحابات خاطئة وكنت أُحدّث نفسي أمام المرآة في محاولة يائسة لاكتشاف من أكون. لقد وصل الهذيان إلى حد أنني في مظاهرة طلابية بالطوب والزجاجات استطعت أن استجمع قواي حتى لا أسير في المقدمة رافعاً شعاراً يؤكد حقيقتي: ***أنا مجنون بالحب.***

مبهوراً بالحضور القاسي لـ"ديلجادينا" النائمة، غيرت التوجهات الروحية لمقالاتي الأسبوعية دون أي خبث. أياً كان الموضوع فقد كنت أكتبه لها، وكنت أبذل حياتي في كل كلمة. وبدلاً من الشكل التقليدي للمقالات التي كانت عليها دائماً فقد كتبتها كرسائل حب يمكن لأي قارئ أن يعتبرها خاصة به. وعرضتُ في الصحيفة عدم كتابة النص بالأحرف اللينوتيب بل أن ينشر بخطي الفلورنتيني. مدير التحرير، بالطبع، رأى أنها طريقة أخرى للتعبير عن غرور الشيخوخة، لكن المدير العام أقنعه بجملة لا تزال منتشرة في التحرير:

– لا تخطئ الظن: المجانين الهادئين يسبقون المستقبل.

الاستجابة الجماهيرية كانت مباشرة ومتحمسة، وجاءت برسائل كثيرة لقراء عاشقين. قُرأت بعضها خلال نشرات الأخبار في الإذاعة كما لو كانت أخباراً لآخر لحظة، وتم طبع نسخ منها على الكربون، كانت تباع على نواصي شارع "سان بلاس" مثل السجائر المهربة. منذ البداية كان واضحاً أنهم خضعوا لتشوقي للتعبير عن نفسي، ولكني تعلمت عادة آخذها بعين الاعتبار عند الكتابة، ودائماً من خلال صوت رجل في التسعين من العمر لم يتعلم كيف يفكر كعجوز. الوسط الثقافي، كما هو معتاد، انقسم على نفسه، وحتى الأخلاقيين أقاموا الدنيا بتحليلهم الخاطئ لخطي. لقد كانوا هم من تسببوا في انقسام الأحاسيس، وزادوا من حدة المشكلة وتسببوا في أن تصبح الذكريات موضة اللحظة.

قبل نهاية العام كنت قد تفاهمت مع "روسا كاباركاس" لأترك المروحة الكهربائية في الغرفة، ومتطلبات الزينة وكل ما سأواصل أخذه معي في المستقبل حتى يكون أكثر إنعاشا للحياة فيها. كنت أصل في العاشرة، ودائماً ما يكون معي شيء لها أو تحبه كلاهما، وأمضي بضع دقائق لإخراج ما هو مختبئ لإقامة مسرح ليالينا. وقبل ذهابي، أبداً ليس بعد الخامسة، أعود للتأكد بأن كل شيء مغلق عليه بالمفتاح. وتبقى الغرفة مختبئة إلى حد كبير كما كانت في بداياتها استعداداً لممارسة الحب الحزين

للزبائن غير الدائمين. سمعت في صباح أحد الأيام أن "ماركوس بيريث"، الصوت الأكثر انتشاراً في الإذاعة منذ الشروق، قرر أن يقرأ مقال الأحد الأسبوعي في نشرته صباح أيام الإثنين. عندما تمكنت من السيطرة على غثياني قلتُ فزعاً: ها أنت تعرفين، يا "ديلجادينا"، الشهرة سيدة ممتلئة الجسد جداً لا تنام مع الشخص منا، لكن عندما يستيقظ الشخص منا تكون إلى جوار السرير تحملق فينا.

بقيتُ في يوم من تلك الأيام لتناول الإفطار مع "روسا كاباركاس"، التي بدأت تبدو لي أقل هرماً رغم الحداد الصارم والقبعة السوداء التي أصبحت تغطيها حتى حاجبيها. إفطارها كان شهيراً بامتيازه بكمية من الفلفل كانت تدفعني إلى البكاء. مع أول قضمة من النار الحية قلت لها غارقاً بالدموع: لست في حاجة الليلة إلى أن يكون القمر مكتملاً حتى تحرقني مؤخرتي. قالت هي: لا تتشكى. لو أنها أحرقتك فهذا لأنك لا تزال تملكها، اشكر الله.

فوجئت هي عندما ذكرت اسم "ديلجادينا". قالت: ليس هذا اسمها، إن اسمها. قاطعتها: لا تذكريه، بالنسبة لي فهي "ديلجادينا". هزت كتفيها: حسن، على أي حال فهي لك، لكنني أعتقد إنه اسم مقزز. حكيت لها عن كلمة النمر التي كتبتها الصبية على المرآة. قالت "روسا": هذا مستحيل، لأنها لا تجيد

القراءة ولا الكتابة. إذن من؟. هزت كتفيها: ربما كانت لشخص مات في الغرفة.

كنت أنتهز ذلك الإفطار لأتخلص من همومي مع "روسا كاباركاس" وأطلب منها خدمات قليلة لراحة ورفاهية "ديلجادينا". كانت تستجيب دون أي تفكير بجرأة تلميذة. كانت تقول لي في تلك الأيام: يا لها من سخرية! أشعر كما لو أنك تطلب مني يدها. بهذه المناسبة، طرأ لها أمر ما: لماذا لا تتزوجان؟. تجمدتُ كقطعة واحدة. في الحقيقة أصرتْ، ستكون أقل كلفة لك. ففي النهاية هي مسألة عمرك إن كنت تنفع أم لا تنفع، لكنك قلت لي من قبل إن هذه مسألة محلولة. أوقفتُها عند حدها: الجنس هو لإرضاء النفس عندما لا يحصل الواحد منا على الحب.

أطلقتْ هي الضحكة: آي، يا حكيمي، عرفت دائماً أنك كنت رجلاً كاملاً، وأنت كنت كذلك دائماً، ويسعدني أن تظل كذلك فيما أعداؤك سلموا أسلحتهم. وربما لهذا السبب يتحدثون عنك هكذا، هل استمعت إلى "ماركوس بيريث"؟. قلت لها لإنهاء الكلام في هذا الموضوع: كل الناس تستمع إليه. لكنها أصرت: أيضاً يستمعون إلى الأستاذ "كاماتشو أي كانو" في برنامجه "ساعة من شيء من كل شيء"، لقد قال بالأمس أن الدنيا لم تعد كما كانت لأنه لا يزال هناك الكثير من الرجال مثلك.

نهاية ذلك الأسبوع، وجدت "ديلجادينا" مصابة بالحمى والكحة. أيقظتُ "روسا كاباركاس" لتعطيني دواء منزليّاً، جاءت إلى الغرفة بعلبة صيدلية للإسعافات الأولية. بعدها بيومين ظلت "ديلجادينا" منهكة، ولم تستطيع العودة إلى عملها اليومي لحياكة الأزرار. كتب لها الطبيب علاجاً منزلياً لعلاج الحمى العادية يحتاج إلى أسبوع، لكنه انزعج من حالتها العامة من سوء التغذية. تركت رؤيتها، وشعرتُ أنني في حاجة إليها، وانتهزت الفرصة لترتيب الغرفة في غيابها.

أخذت معي أيضاً لوحة من رسم "ثيثيليو بوراس" "كنا كلنا في الانتظار"، وكتاب قصص "الفارو ثيبيدا". وأخذت معي الأجزاء الستة من كتاب "خوان كريستوفال"، لـــ"رامونين رولاند"، لقضاء سهراتي. لذلك عندما تمكنت "ديلجادينا" من العودة إلى الغرفة وجدتها تستحق السعادة المستقرة: الهواء النقي بغاز معطر، الجدران مطلية باللون الوردي. اللمبات ملونة، زهور جديدة في الفازات، كتبي المفضلة، لوحات أمي الأثيرة معلقة بطريقة أخرى، طبقاً لموضة هذه الأيام، وكنت قد غيرت الراديو القديم بواحد به موجة قصيرة مثبتة على برنامج موسيقى مثقف، لكي تتعلم "ديلجادينا" النوم على أنغام رباعيات "موزارت"، لكنني وجدته في يوم من الأيام مثبت على محطة متخصصة في الأغنيات الجديدة. لقد كان هذا توجهها، ولا شك،

واحترمته بلا أدنى ألم، فقد حدث أنني أنا نفسي أحببتها بكل قلبي في أفضل أيامي. وقبل العودة إلى بيتي في اليوم التالي كتبتُ على المرآة بقلم أحمر الشفاه: يا طفلتي أنا، نحن وحيدان في العالم.

في تلك الفترة داهمني إحساس غريب بأنها بدأت تكبر قبل الأوان. وحكيت ذلك إلى "روسا كاباركاس"، وهي اعتبرته طبيعيّاً. قالت: إنها تكمل عامها الخامس عشر في الخامس من ديسمبر. إنها برج قوس المكتمل. شعرت بعدم الارتياح أن تكون واقعية حتى تكمل أعواماً. ماذا يمكنني أن أهديها؟، قالت "روسا كاباركاس": دراجة هوائية، عليها أن تقطع المدينة مرتين في اليوم لتذهب لحياكة الأزرار. وأرتني في الغرفة الخلفية الدراجة التي تستخدمها، والحقيقة اعتقدت أنها أداة غير مناسبة لامرأة معشوقة جدّاً مع ذلك، أقنعني وجود الدراجة كإشارة لا تقبل الجدل على أن "ديلجادينا" موجودة في الحياة الواقعية.

عندما ذهبت لشراء أفضل دراجة لها لم أستطع التغلب على إغراء تجربتها ودرت بعض الدورات غير المحكمة على منحدر المحل. البائع الذي سألني عن عمري أجبته بخجل الشيخوخة: سأكمل الواحد والتسعين. قال البائع ما كنت أريده تماماً: لكنك تبدو أقل عشرين سنة. أنا نفسي لم أفهم كيف أنني كنت لا أزال أحافظ على تدريبات المدرسة وشعرت إنني مملوء سعادة

مزهوة. بدأت أغني. أولاً لنفسي، بصوت خفيض، وبعدها بكل ما امتلأ به قلبي، بين البازارات المزدحمة في السوق العام. كانت الناس تنظر إليّ بسعادة، وتتصايح من حولي، وتطالبني بالمشاركة في سباق كولومبيا بكرسي العجلات. أنا كنت أحييهم بذراعي تحية بحار سعيد دون أن أقطع الأغنية. هذا الأسبوع، احتفالاً بديسمبر، كتبت مقالاً جريئاً: كيف يمكنك أن تكون سعيداً على الدراجة وأنت في التسعين.

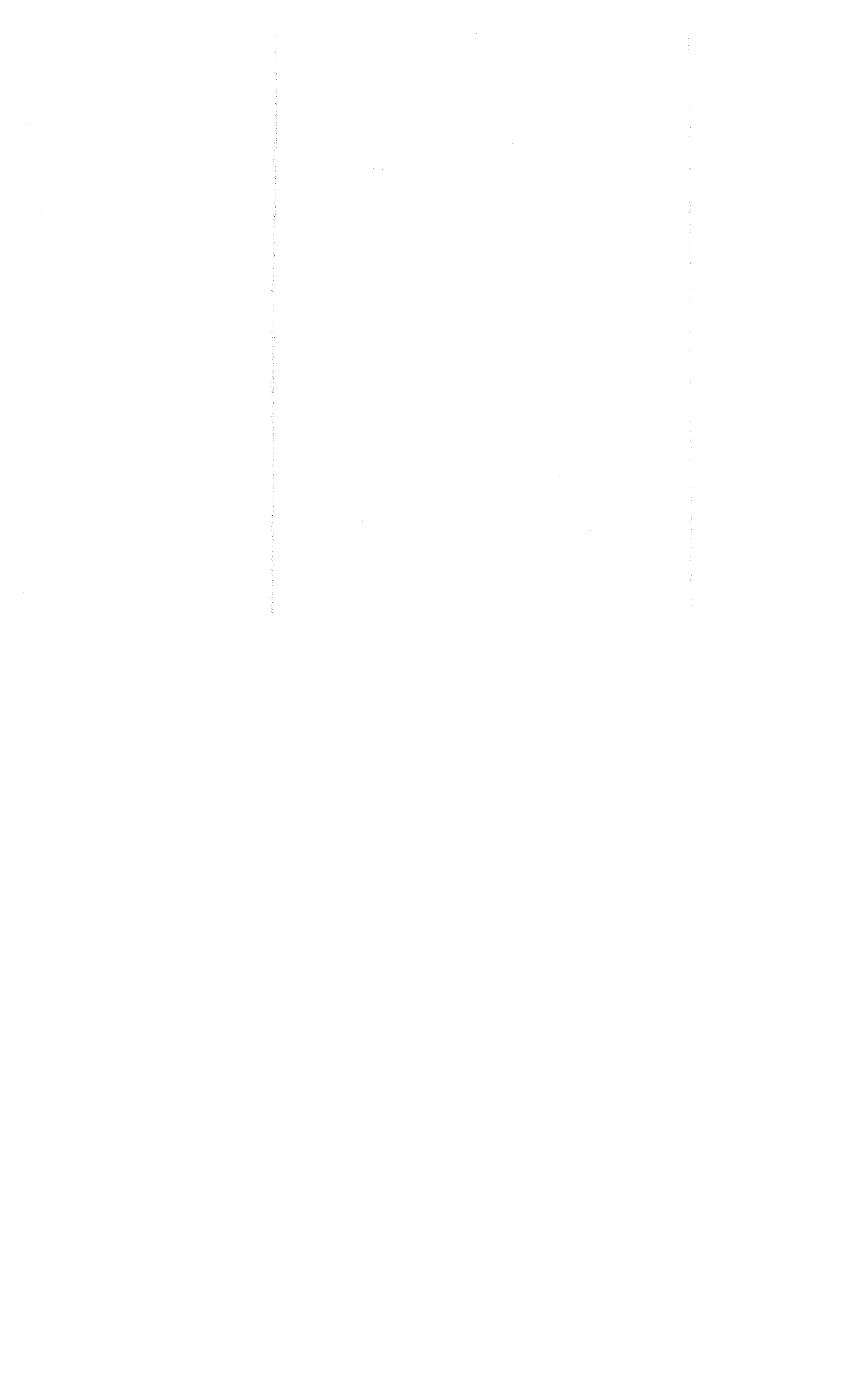
ليلة عيد ميلادها غنيت لـــ"ديلجادينا" الأغنية كاملة، وقبّلتها على كل جسدها إلى أن انقطعت أنفاسي: العمود الفقري، فقرة فقرة، حتى ردفيها الهزيلين، جانبها الموشوم، جانب قلبها الذي لا يهدأ. وكلما قبلتها ازدادت حرارة جسدها وشع بعطر جبلي. كانت تجيبني برعشات جديدة في كل بوصة من بشرتها، وفي كل منها وجدتُ دفئاً مختلفاً، وطعماً خاصّاً، وحمحمة جديدة، ويتردد كل هذا داخليّاً بنغمات سريعة وتتفتح حلماتها كزهرة بلا لمس. بدأت في الإحساس بالنوم عند الفجر عندما شعرت كيف أن حفيفاً كثيفاً في البحر ورعباً في الأشجار اخترق قلبي. حينها ذهبت إلى الحمّام وكتبت على المرآة: ***"ديلجادينا" يا حياتي، لقد جاءت نسائم أعياد الميلاد.***

أحد ذكرياتي الأكثر سعادة كان الاختلال الذي شعرت به في صباح ما مثل ذلك الذي شعرت به عند الخروج من

المدرسة. ماذا يحدث لي؟، المعلمة قالت لي صارخة: آي، يا صغيري، ألا ترى أنها النسائم؟. ثمانون عاماً بعدها عدت إلى الإحساس بها عندما استيقظت في سرير "ديلجادينا"، وكان ديسمبر نفسه الذي عاد في موعده بسمائه الصافية، وعواصف الرمال، والدوامات الشوارعية التي تنزع أسقف البيوت وتعري سيقان بنات المدارس. وتسيطر على المدينة حالة من الشبحية. وفي ليالي النسيم يمكن سماع صرخات السوق الأم حتى في الأحياء الأكثر ارتفاعاً، كما لو كانت بالقرب من الناصية المجاورة. لم يكن حينها غريباً أن رياح ديسمبر تسمح لنا بلقاء الأصدقاء من خلال أصواتهم المتعرية في البيوت السرية البعيدة جدّاً.

مع ذلك، أيضاً مع النسيم جاءني النبأ السيئ بأن "ديلجادينا" لا تستطيع قضاء ليلة أعياد الميلاد معي بل ستقضيها مع أسرتها. إذا كنت أكره شيئا في هذا العالم فإنني أكره الأعياد المفروضة التي تبكي الناس فيها لأنها تشعر بالسعادة، وتُطلق فيها الألعاب النارية، والأغنيات البليدة، وهدايا الأوراق الخشنة التي لا علاقة لها بالطفل الذي وُلد قبل ألفين وخمسمائة عام في حظيرة فقيرة. إلا أنه، عندما حلت الليلة لم أتمكن من مقاومة الحنين وذهبت إلى الغرفة بدونها. نمتُ جيداً، واستيقظتُ إلى جوار دب من الشعر المستعار يسير على قدمين كما لو كان دبّاً

قطبياً، مع بطاقة تقول: إلى أبي القبيح. كانت "روسا كاباركاس" قد قالت لي إن "ديلجادينا" كانت تتعلم القراءة من دروسي المكتوبة على المرآة، وحروفها الجميلة بدت لي ممتازة. لكنها هي نفسها أحزنتني بالخبر الأسوأ بأن الدب كان هدية منها هي، ولهذا فإن ليلة رأس السنة قضيتها في بيتي وفي سريري منذ الثامنة، ونمتُ بلا مرارة. كنت سعيداً، لأنه عندما دقت الثانية عشرة، ما بين قرع الأجراس الغاضبة، وصفارات المصانع ورجال المطافئ، وعويل السفن، وانطلاق المدافع، والصواريخ، شعرت بأن "ديلجادينا" دخلت على أطراف أصابعها، ونامت إلى جواري، وقبّلتني. كان شيئاً واقعيّاً إلى درجة أن رائحة العرقسوس بقيت في فمي.



-4-

مع بدايات العام الجديد بدأنا في التعرف على بعضنا كما لو كنا نعيش معاً ومستيقظين، فقد عثرت على رنة صوت حذرة كانت تسمعها دون أن تستيقظ، وكانت تجيبني بلغة طبيعية لجسدها. حالاتها النفسية يمكن معرفتها من خلال طريقتها في النوم. من حالة الإنهاك والفظاظة التي كانت عليها في البداية تحولت إلى حالة من السلام الداخلي التي تُجَمل وجهها وتُثري نومها. كنت أحكي لها حياتي، وأقرأ لها في سمعها مخطوطات مقالاتي الأسبوعية التي كانت هي فيها دون أن أذكر ذلك، وهي فقط.

خلال تلك الفترة تركت لها على المخدة قرطاً من الزمرد كان ملكاً لأمي. ارتدته خلال اللقاء التالي ولكنه لم يكن جميلاً عليها. أخذت لها بعد ذلك قرطاً أكثر ملاءمة للون بشرتها. وشرحت لها: القرط الأول الذي جئت لك به لم يكن جميلاً نظراً لنوعية بشرتك وقصة شعرك. هذا سيكون أفضل. لم تضع أي منهما خلال اللقاءين التاليين، لكن في الثالث وضعت الذي

أشرت لها به. وهكذا فهمت أنها لا تطيع أوامري، ولكنها كانت تنتظر الفرصة لترضيني. خلال تلك الأيام شعرت أنني معتاد جداً على هذا النوع من الحياة المنزلية، ولم أواصل النوم عاريا فقد أخذت معي بيجامة من الحرير الصيني كنت قد تركت استعمالها لأنه لم يكن هناك من ينزعها عني.

بدأت أقرأ لها "الأمير الصغير" لـ"سانت-اكسوبري" مؤلف فرنسي العالم أجمعه معجب به أكثر من الفرنسيين. كان أول كتاب يسليها دون أن يوقظها، إلى درجة إنني ذهبت يومين متتاليين حتى أكمل قراءته لها. وواصلنا بـ"حكايات" "بيرالوت" و"التاريخ المقدس" و"ألف ليلة وليلة" في طبعتها المنقحة للأطفال، وما بين الفارق بين كتاب وآخر انتبهت إلى أن نومها كانت له درجات متعددة في العمق طبقاً لاهتمامها بالقراءة. عندما أشعر بأنها قد وصلت إلى النهاية أطفئ النور وأنام معانقاً لها إلى أن تصيح الديوك.

كنت أشعر بسعادة غامرة، فأقبلها في جفونها، برقة شديدة، وفي ليلة حدث كما لو كان نوراً انبلج في السماء: ابتسمت لأول مرة. وبعدها، بلا أي سبب، استدارت في السرير، أولتني ظهرها، وقالت ساخطة: كانت "إيسابيل" من أبكت القواقع. فرحاً بالأمل في الحوار، سألتها بنفس اللهجة: لمن كانت؟، لم تجب. كان لصوتها ملامح وضيعة، كما لو لم يكن صوتها بل لشخص

غريب تحمله داخلها. أي ظل للشك اختفى حينئذ من روحي: إنني أفضلها نائمة.

مشكلتي الوحيدة كانت القط. كان قليل الشهية ونافراً ومضى عليه يومان دون أن يرفع رأسه في مكانه المعتاد، وخمشني خمشة حيوان جريح عندما أردت أن أضعه في سلة القش لتأخذه "دميانة" إلى البيطري. بالكاد سيطرتْ عليه، وحملتْه غاضباً داخل كيس. وبعدها بقليل اتصلتْ تليفونياً من حظيرة البلدية لتقول لي إنه لا مفر من ذبحه، ويحتاجون إلى تعليماتي. لماذا؟، لأنه عجوز جدّاً، قالت "دميانة". فكرت بغضب إنه يمكنهم أن يشووني حيّاً في فرن القطط. شعرت أنني أعزل بين نارين: لم أكن قد تعلمت بعد حب القط، لكن لم يكن قلبي يطاوعني للأمر بقتله فقط لأنه عجوز. ماذا يقول الكتيب عن هذه الحالة؟.

أفعمني الحادث كثيراً، فكتبت مقالاً ليوم الأحد التالي بعنوان منتحل من قصيدة لـ"نيرودا": هل القط نمر صالون مصغر؟، تسبب المقال في بدء حملة قسّمت القراء من جديد بين مؤيد ومعارض للقطط. خلال خمسة أيام تفوق رأي يقول إنه شرعي قتل القطط لأسباب تتعلق بالصحة العامة، ولكن ليس لأنها صارت عجوزاً.

بعد موت أمي كان يقلقني رعب أن أحداً يلمسني وأنا نائم. في إحدى الليالي شعرت بها، لكن صوتها أعاد لي الهدوء:

"فيجليو ميو بابيريتو". عدت إلى الإحساس به في فجر يوم من الأيام في غرفة "ديلجادينا"، وتراجعت متلذذاً معتقداً أنها لمستني. لكن لا: كانت "روسا كاباركاس" في الظلام. قالت لي: ارتدِ ملابسك وتعالَ معي، لدي مشكلة جادة.

هذا ما كان، وأكثر جدية مما أمكنني تخيله. أحد زبائن البيت الكبار قتلوه طعنا في أول غرفة بالممر، وهرب القاتل، والجثة الضخمة، عارية، لكنها مرتدية الحذاء، كانت تشبه الدجاجة المسلوقة بالبخار في السرير الغارق في الدماء. تعرفت عليه على الفور: لقد كان خ.م.ب، أحد رجال البنوك الكبار، شهير بأناقته، ولباقته وحسن هندامه، وبشكل خاص بعنايته ببيته. بعنقه جرحان محمّران كشفتين، وشقّاً في البطن لم يتوقف نزيفه. ولم يكد يبدأ التعامل بحزم. ما أدهشني أكثر من جروحه أنه كان لا يزال بالواقي الذكري وفيما يبدو أنه لم يكن قد مارس الجنس بعد عندما فاجأه الموت.

لم تكن "روسا كاباركاس" تعرف من هو مرافقه، لأنه هو أيضاً كان لديه امتياز الدخول عبر بوابة الحديقة. ولم يتم استبعاد أن يكون مرافقه رجلاً. وكل ما كانت تريده سيدة البيت أن أساعدها في إلباس الجثة ملابسها. كانت واثقة جدّاً، إن ما أقلقني هو أن فكرة القتل بالنسبة لها مجرد قضية داخلية. قلت لها: ليس هناك ما هو أصعب من تلبيس ميت. ردت عليّ هي:

لقد فعلتها مراعاة لله. المسألة سهلة لو أن هناك من يسنده لي. أوضحت لها: هل تتخيلين أن هناك من يصدق أن جسداً ممزقاً بسكين داخل ملابس فارس إنجليزي أنيقة لم تمس؟.

انتفضت من أجل "ديلجادينا". قالت "روسا كاباركاس": من الأفضل أن تأخذها معك.أجبتها وقد جف ريقي: أموت قبل. انتبهت هي ولم تستطع أن تخفي احتقارها: أنت ترتعد!. قلت: من أجلها. رغم أن هذا كان نصف الحقيقة. نبهيها أن تذهب قبل أن يصل أحد. قالت هي: اتفقنا، رغم إنك صحافي ولن يحدث لك شيء. قلت لها بشيء من الغيظ: ولا أنتِ. فأنتِ الليبرالي الوحيد الذي له سلطة في هذه الحكومة.

المدينة، جشعة بطبيعتها المطمئنة وأمنها الأخلاقي، تعيش جريمة قتل فضائحية وبشعة كل سنة. وتلك لم تكن كذلك. النبأ الرسمي في المانشيتات المبالغ فيها، والتي تضم تفاصيل واسعة قالت إن رجل البنوك الشاب تعرض للسرقة والقتل طعناً في طريق "برادومار" لأسباب غير مفهومة. لم يكن له أعداء. أشار بيان الحكومة إلى أن القتلة المشتبه بهم مهاجرون من داخل البلاد، الذين بدءوا موجة من الجريمة العامة الغريبة عن روح الشعب المتمدين. في الساعات الأولي تم إلقاء القبض على أكثر من خمسين.

ذهبتُ حانقاً إلى محرر القضايا، وهو صحفي عادي من نوعية صحفيي العشرينيات، يضع شريطاً من السلوليد الأخضر وحمّالات في الأكمام، ويدّعي أنه سبق الأحداث. مع ذلك، لم يكن يعرف سوى بعض المعلومات التافهة عن الجريمة، وأنا أكملتها له إلى ما سمح لي به الحذر. وبهذه الطريقة كتبنا خمس وريقات بخط اليد لنشرها كخبر على ثماني أعمدة في الصفحة الأولى، ونسبناها للمصادر الوهمية التي تستحق تقديرنا. لكن "رجل التاسعة الكريه" الرقيب- لم ترتعش يده ليفرض الرؤية الرسمية التي تقول إنه تعرض للسرقة من جانب قطّاع الطريق الليبراليين. أنا نفضت عن نفسي مسئولية أغبى دفن ميت حدث في القرن.

عندما عدت إلى البيت تلك الليلة هاتفت "روسا كاباركاس" لأعرف ما حدث مع "ديلجادينا"، لكنها لم تجب على التليفون طوال أربعة أيام. في الخامس ذهبت إلى البيت جازاً على أسناني. كانت الأبواب مشمعة، ليس بأوامر البوليس ولكن بأوامر من الصحة. لا أحد في الجيرة يعرف شيئاً. ولا أثر واحد يدل على "ديلجادينا"، وبدأتُ بحثاً شرساً وكان في بعض الأحيان مثيراً للسخرية تركني منهوكاً. أمضيت أياماً كاملة أراقب الفتيات راكبات الدراجات من على مقعدي في إحدى الحدائق المتربة التي يلعب فيها الأطفال بالتسلق على تمثال "سيمون

بوليفار". كانت تلك الفتيات يبدلن على الدراجة نافشات العروق، جميلات، مستعدات، مستعدات للاستسلام لأي طالب لهن. عندما فقدت الأمل لجأت إلى طمأنينة الأغاني. كنت كمدمن خمر مسمم: كل كلمة كانت هي. كنت دائماً في حاجة إلى الصمت لأكتب لأن عقلي كان ينتبه إلى الموسيقى أكثر من الكتابة. ولكن هذه المرة كان العكس: فقط استطعت الكتابة في ظل الأغاني. وامتلأت حياتي بها. المقالات التي كتبتها خلال هذين الأسبوعين كانت نموذجاً مشفراً لكتابة خطابات الحب. رئيس التحرير كان منزعجاً من سيل الإجابات، وطلب مني أن أخفف من الحب فيما كنا نفكر كيف نخفف عن القراء العشاق الكثيرين.

انعدام الهدوء قضى على نظام أيامي الأخيرة. كنتُ أستيقظ في الخامسة، لكني كنت أظل في ظلام الغرفة متخيلاً "ديلجادينا" في حياتها المتخيلة تُوقظ أشقاءها، تُلبسهم ليذهبوا إلى المدرسة، تُفطرهم، لو كان هناك ما يأكلونه، وتقطع المدينة بدراجتها لتنفذ حكماً عليها بحياكة الأزرار. سألت نفسي مندهشاً: في أي شيء تفكر امرأة وهي تحيك زرّاً؟، هل تفكر فيّ؟ وهي أيضاً هل تبحث عن "روسا كاباركاس" لتعثر عليّ؟، أمضيتُ أسبوعاً دون أن أخلع لباس الميكانيكي الذي أرتديه لا ليلاً ولا نهاراً، وبلا استحمام، وبلا حلاقة، ولا تنظيف أسناني، لأن الحب علمني متأخراً جداً أن الواحد منا يهتم بهندامه من أجل شخص ما،

ويرتدي ملابسه ويتعطر من أجل شخص ما، وأنا لم يكن لي أبداً شخص ما. اعتقدتْ "دميانة" أنني كنتُ مريضاً عندما عثرت عليّ عارياً في السرير المعلق في العاشرة صباحاً. رأيتها بعينين غائمتين بالجشع ودعوتها إلى التمرغ معاً. هي، باحتقار، قالت لي:

– هل فكرت في ما ستفعل لو أنني وافقت؟.

وهكذا عرفت إلى أي حد وصلت حالتي المهلهلة من المعاناة. لا أتعرف على نفسي في ألمي المراهق. ولم أعد للخروج من البيت حتى لا أترك التليفون. كنت أكتب بدون رفع السماعة، وعند أول رنة جرس كنت أقفز عليه معتقداً أنه يمكنها أن تكون "روسا كاباركاس". كنت أتوقف عن عمل أي شيء للاتصال بها، وحاولت عدة أيام حتى فهمت أنه تليفون بلا قلب.

عند العودة إلى البيت في أمسية ممطرة وجدت القط ملتفّاً حول نفسه على عتبة الباب. كان قذراً وجريحاً، ويبدو عليه الحزن. علّمني الكُتيّب أنه كان مريضاً وتبعت تعليماته لأبث فيه الحياة. فجأة، وبينما كنت أنعس في نومة القيلولة، نبهتني فكرة أنه يمكنه أن يدلني على بيت "ديلجادينا". حملته في كيس من أكياس السوق إلى أن وصلت إلى محل "روسا كاباركاس"، الذي لا يزال مختوما بالشمع وبلا علامات على الحياة، لكنه انتفض في الكيس بكل حدة وتمكن من الهرب، قفز حاجز الحديقة

واختفى بين الأشجار. خبطت على الباب بقبضتي، وسأل صوت عسكري النبرة دون أن يفتح: من هناك؟. قلت دون تراجع: زائر، أبحث عن السيدة. قال الصوت: لا توجد سيدة. ألححت: على الأقل افتح لي لأُخرج القط. قال: ليس هناك قط. سألت: من حضرتك؟.

قال الصوت:

– لا أحد.

كنت أعرف دائماً أن الموت حبّاً لم يكن مسموحاً به سوى في الشِّعْر. في تلك الأمسية، أثناء عودتي مرة أخرى بدون القط وبدونها، اكتشفتُ أنه لم يكن ممكناً الموت، بل إنني أنا نفسي، العجوز، الوحيد، كنت أموت حبّاً. وانتبهتُ أيضاً إلى أن الحقيقة العكسية ممكنة: ما كان لي أن أغيّر عالم اللذة الذي أعيشه مقابل أي شيء. لقد فقدتُ أكثر من خمسة عشر عاماً في محاولة ترجمة أغنيات "ليوباردي"، وفقط في تلك الأمسية شعرتُ بها بعمق: ***آيا حزنا عليّ، لو كان حبّاً، كم هو معذب.***

دخولي إلى الصحيفة مرتدياً الرداء المنزلي وغير حليق أثارت شكوكاً حقيقية حول حالتي العقلية. المبنى بعد الإصلاحات، بكبائن فردية من الزجاج والأنوار النيون، كان يبدو كما لو كان مستشفى ولادة. المناخ الاصطناعي الصامت والمرفه يجبر على الحديث همساً والسير على أطراف الأصابع.

في البهو، كنواب الملوك الموتى، كانت هناك صور رؤساء التحرير الأبديين وصور الزوار المشاهير. والصالة الرئيسية الضخمة كانت تحت أنظار صورة ضخمة لإدارة التحرير الحالية تم إلتقاطها يوم عيد ميلادي. لم أستطع المقارنة الذهنية بالصورة الأخرى التي التقطت عندما كنت في الثلاثين، واكتشفت مرة أخرى برعب أنني ازددت شيخوخة وأنني أصبحت مزرياً في الصور أكثر من الواقع. السكرتيرة التي قبلتني في مساء يوم عيد ميلادي سألتني إن كنت مريضاً. كنت سعيداً بإجابتي لها بالحقيقة حتى لا تصدقها: مريض بالحب. قالت هي: من المؤسف انه ليس بسببي!. أجبتها أنا بمجاملة: لا تكوني واثقة من نفسك.

خرج المحرر القضائي من كابينته صارخاً بأن هناك جثتين لفتاتين مجهولتي الهوية في مدخل مبنى البلدية. سألته مرعوباً: كم عمرهما؟. قال هو: صبيتان في مقتبل العمر، من الممكن أن يكنّ من المهاجرات من الداخل تبعهما إلى هنا قتلة النظام. تنفست مرتاحاً. قلت: كان الوضع يغزونا في صمت كبقعة دمّ. صرخ المحرر القضائي مبتعداً:

– دم لا، يا معلم، قذارة.

حدث شيء أسوأ بعدها بأيام، عندما ظهرت فجأة صبية بسلة مماثلة لسلة القط مرت كالرعشة أمام مكتبة "موندو"، تبعتها

متدافعاً بين الجموع في ازدحام الثانية عشرة من منتصف النهار. كانت جميلة جدّاً، بخطوات واسعة ومهارة في فتح طريقها بين الناس، أجهدني متابعتها. وأخيراً عندما سبقتها ونظرت إليها مواجهة. أبعدتني هي عن طريقها بيدها دون أن تتوقف أو تعتذر. لم تكن من اعتقدت أنها هي، لكن عجرفتها آلمتني كما لو كانت هي. فهمت حينئذٍ إنني لن أكون قادراً على التعرف على "ديلجادينا" مستيقظة ومرتدية ملابسها، ولا هي يمكنها أن تعرف من أكون أنا، لأنها لم تشاهدني مطلقاً. تحت وطأة حالة جنونية حِكْتُ خلال ثلاثة أيام اثني عشر حذاء أرزق ووردياً لأطفال حديثي الولادة، محاولاً منح نفسي قيمة حتى لا أستمتع، أو أغني، أو أتذكر الأغنيات التي تذكرني بها.

الحقيقة كانت أنني لم أستطع مقاومة روحي، وبدأت أنتبه إلى الشيخوخة بضعفي في مواجهة الحب. هناك تجربة أخرى أكثر مأساوية حدثت عندما صدم الأتوبيس العام راكبة دراجة في وسط الحي التجاري. ما إن حملوها في عربة الإسعاف، كان يمكن التعرف على حجم الكارثة من حالة الدراجة الراقدة على بحيرة من الدماء الحية. لكن انفعالي لم يكن نتيجة تحطم الدراجة ولكن بسبب ماركتها ولونها. لم تكن أخرى غير تلك التي اشتريتها بنفسي وأهديتها لــ"ديلجادينا".

اتفق الشهود على أن راكبة الدراجة الجريحة كانت صبية

صغيرة السن جدّاً، وطويلة ونحيلة، وشعرها قصير ومتجعد. مذهولاً، أخذت أول تاكسي مرّ، وطلبت منه أن يأخذني إلى المستشفى الخيري، مبنى قديم بجدران أرجوانية يشبه سجناً مغروساً في الرمال. كنت في حاجة إلى نصف ساعة لأدخل، ونصفاً آخر لأخرج إلى الفناء المحاط بالأشجار المثمرة حيث توجد امرأة حزينة وقفت في طريقي، ونظرتْ إلى عيني وصرخت:

– أنا من تبحث عنها.

عندها فقط تذكرتُ أنه هناك يعيش نزلاء مستشفى البلدية المجانين غير الخطرين طليقين. كان عليّ أن أقدم نفسي أمام إدارة المستشفى كصحافي حتى يقودني ممرض إلى صالة الطوارئ. وكانت البيانات في دفتر الدخول: "روسالبا ريو"، ستة عشر عاماً، دون مهنة محددة. التشخيص: ارتجاج في المخ. الوضع: مستقر. سألت رئيس الصالة إن كان يمكنني رؤيتها، على أمل أن يرفضوا، لكنهم أخذوني مسرورين ربما أريد أن أكتب عن حالة الإهمال التي توجد عليها المستشفى.

عبرنا صالة مزدحمة تسيطر عليها رائحة الفنيك الحادة والمرضى متجمعون على الأسرة. في العمق، في غرفة معزولة، ممتدة على نقالة معدنية، كانت من أبحث عنها. كانت جمجمتها مغطاة بالأربطة، والوجه غير محدد المعالم، لكن نظرة

واحدة إلى قدميها كانت كافية لأعرف أنها ليست هي. عندها فقط طرأ لي أن أسأل نفسي: ماذا كان يمكنني أن أفعل لو كانت هي؟.

كنت لا أزال متورطاً في عنكبوت الليل، كانت لدي القدرة للذهاب في اليوم التالي إلى مصنع قمصان كانت "روسا كاباركاس" قالت في مرة إن الصبية تعمل هناك، وطلبت من صاحب المصنع أن يرينا مصنعه كنموذج لمشروع عالمي للأمم المتحدة. كان لبنانيّاً صفيق الجلد وصموتاً، فتح لنا أبواب مملكته حالماً أن يكون نموذجاً عالميّاً.

ثلاثمائة من الصبايا بملابس بيضاء ورماد الأربعاء على جباههن يحكن أزراراً في الصالة الضخمة المضاءة. عندما شاهدننا ندخل أثرن الفوضى كتلميذات المدارس وراقبننا بأطراف عيونهن بينما كان المدير يشرح لنا إضافاته إلى فن حياكة الأزرار التي لا تنسى. أنا كنت أتفحص الوجوه واحداً إثر آخر، على أمل اكتشاف "ديلجادينا" مرتدية ملابسها ومستيقظة. لكن كانت واحدة منهن من اكتشفتني بنظرة إعجاب مخيفة لا تحمل أدنى شفقة:

–قل لي يا سيدي، أليس حضرتك من يكتب رسائل الحب في الصحيفة؟.

لم أتخيل مطلقاً أن طفلة نائمة يمكنها أن تتسبب في مثل هذا الضرر. هربت من المصنع دون وداع ولا التفكير حتى إن كانت واحدة من عذراوات المَطْهَر أولئك كانت أخيراً من أبحث عنها. عندما خرجت من هناك، الشعور الوحيد الذي بقي في حياتي هو رغبتي في البكاء.

هاتفتني "روسا كاباركاس" بعد شهر بتفسير لا يصدق: لقد أمضيت إجازة أستحقها في "كارتاخينا دي اندياس"، بعد اغتيال رجل البنوك. لم أصدقها، بالطبع، هنأتها بحسن حظها وتركتها تواصل كذبتها قبل أن أوجه إليها السؤال الذي يغلي في القلب:

– وهي؟.

لزمت "روسا كاباركاس" صمتاً طويلاً. وأخيراً قالت: ها هي هناك. لكن صوتها كان مراوغاً: يجب الانتظار لبعض الوقت. كم؟. ليست لدي أدنى فكرة، سأخبرك. شعرت أنها ستختم المكالمة فأوقفتها فجأة: انتظري، قدمي لي بعض الإيضاح؟. قالت هي: ليس هناك إيضاح. وأنهت: احترس، يمكنك أن تؤذي نفسك، وبشكل خاص، أن تؤذيها هي. وأنا الذي لم أكن مستعداً لمثل هذا التصنع. أجبتُها في محاولة للاقتراب من الحقيقة. قلت لها: في النهاية، نحن شريكان. لم تتقدم هي ولا خطوة أكثر من هذا. وقالت لي: اهدأ، الصبية في حالة جيدة

وفي انتظار الاتصال بها، ولكن الآن ليس هناك أي شيء يمكن عمله، ولن أقول شيئاً أكثر من هذا. مع السلامة.

مكثت والتليفون في يدي دون أن أعرف ماذا أفعل، فأنا أعرفها أيضاً بشكل كبير حتى أفكر أنه لا يمكنني الحصول منها على شيء ما لم يكن برضاها. وبعد منتصف النهار درت حول البيت دورة غير مقصودة، معتقداً في الصدفة أكثر من الأسباب، فوجدته مغلقاً ولا تزال عليه أختام الصحة. فكرت أن "روسا كاباركاس" قد هاتفتني من مكان آخر، وربما من مدينة أخرى، ومجرد وجود هذه الفكرة ملأني بنذر شريرة. إلا أنها في السادسة مساء، فيما لم أكن أنتظرها، أبلغتني تليفونياً بكلمة السر:

–الآن، نعم.

في العاشرة ليلاً، مرتعشاً ومصراً على شفتي حتى لا أبكي، ذهبت محملاً بعلب من الشيكولاته السويسرية، وحلوى اللوز والبندق، والكراملة، وسلة من الزهور الرائعة لأغطي بها السرير. كان الباب موارباً، والأنوار مضاءة وينساب من الراديو بصوت منخفض السوناتة رقم واحد للفيولين والبيانو لـ"برامز". كانت "ديلجادينا" في السرير أكثر روعة ومختلفة، بذلت جهداً للتعرف عليها.

كانت قد كبرت، لكن لا يبدو هذا على طولها بل في النضج المكثف الذي يضفيه عليها عامان أو ثلاثة أعوام، وأكثر عرياً من أي وقت آخر. وجنتاها ممتلئتان، وبشرتها محترقة بشمس بحر عفي، والشفتان الرقيقتان والشعر قصير ومجعد يسكب على وجهها روعة "أبولو". لكن لم يكن هناك خطأ محتمل، لأن نهدها كبر إلى درجة أنه لم تعد تكفيه اليد الواحدة، وردفاها قد اكتملا وعظامها أصبحت أكثر صلابة وتناسقاً. أعجبني تناسق الطبيعة، لكن أخافتني اللمسات الاصطناعية: الرموش الاصطناعية، الأظافر في اليدين والقدمين مدهونة بالفضي، والعطر المسكوب لم يكن له أية علاقة بالحب. مع ذلك، فإن ما أخرجني عن طوري كان الرفاهية التي تحملها: قرطان من الذهب بدلايات من الزمرد، وعقد من اللؤلؤ الطبيعي، وأسورة من الذهب بها لمعان الماس، وخواتم من الأحجار الكريمة في كل أصابعها. وعلى الكرسي كان هناك فستان سهرة موشى بالترتر والتطريز، وحذاء منخفض. دخان غريب صعد من أمعائي، صرختُ:

– عاهرة!.

فقد همس الشيطان في أذني بالتفكير المرعب. وكان هكذا: ليلة الجريمة لم يكن لدى "روسا كاباركاس" الوقت والهدوء لتخبر الصبية، وعثر عليها البوليس في الغرفة، وحيدة، دون السن القانونية وبلا سبب معقول لوجودها هناك. ولا أحد مثل

"روسا كاباركاس" للتصرف في وضع كهذا: باعت عذرية الصبية لأحد كبار عملائها مقابل أن يخرجوها هي من الجريمة نظيفة. أولاً، بالطبع، كان الاختفاء حتى تهدأ الفضيحة. يا للروعة!. وشهر عسل للثلاثة، هما في السرير و"روسا كاباركاس" في شرفة مترفة تستمتع بالبراءة السعيدة. أصابني عمى الغضب الوقتي، فانفجرت ضد الجدران وضد أي شيء في الغرفة: اللمبات والراديو والمروحة والمرايا والأواني والأكواب. فعلتها بتأنٍّ، ولكن بلا توقف، وبإتلاف كبير وبسُكر محسوب أنقذ حياتي. قفزت الصبية عند أول انفجار، لكنها لم تنظر إليّ بل تكورت وأدارت ظهرها نحوي، وظلت هكذا تنتفض ارتعاشا إلى أن توقف الانفجار، ودجاجات الفناء وكلاب الفجر زادوا من حدة الفضيحة. بالرغبة العمياء للغضب هب الإلهام الأخير بإشعال النار في البيت، عندما ظهرت في الباب صورة "روسا كاباركاس" الهادئة بقميص النوم. لم تقل شيئاً. راقبت بعينيها أثر الكارثة، وتأكدت أن الصبية كانت ملتفة على نفسها كقوقعة ورأسها مختبئ بين ذراعيها: مرتعبة ولكنها سليمة.

-يا إلهي!.

صرخت "روسا كاباركاس".

-كم يمكنني أن أدفع من أجل حب كهذا!.

رمقتني من أعلى إلى أسفل بنظرة مشفقة، وأمرتني: هيا. تبعتها حتى البيت، قدمتْ لي في صمت كوباً من الماء، أشارت إليّ أن أجلس أمامها، ووضعتني في موضع الاعتراف. قالت لي: حسنا، والآن تصرف كعاقل واحكِ لي: ماذا حدث لك؟

حكيت لها ما كنت أعتقد أنها حقيقتي التي اكتشفتها. استمعت إليّ "روسا كاباركاس" في صمت، دون أي شك، وفي النهاية بدت ملهمة. قالت: يا للروعة، لقد قلت دائماً إن الغيرة تعرف أفضل من الحقيقة. وحكت لي حينئذ الواقع دون تحفظ. قالت حقيقة، إنه خلال تشوشها ليلة الجريمة، نسيت الصبية نائمة في الغرفة. أحد زبائنها، محامي القتيل، إضافة إلى أنه وزع هدايا ورشاوى في كل جانب، دعا "روسا كاباركاس" إلى فندق منتجع في "كارتاخينا دي اندياس"، حتى تخف حدة الفضيحة. قالت "روسا كاباركاس": صدقني إنه خلال كل ذلك الوقت لم أترك التفكير فيك وفي الصبية لحظة واحدة. لقد عدت قبل أمس وأول شيء فعلته كان الاتصال بك تليفونياً، لكن لم يجبني أحد. فيما جاءت الصبية على الفور، وكانت في حالة سيئة جداً فحممتها لك، وألبستها لك، وأرسلت لك بها إلى صالون تجميل بأوامر أن يعدوها كملكة. وها أنت رأيت كيف كانت: رائعة. والملابس الفاخرة؟، إنها ملابس أؤجرها لربيباتي الفقيرات

عندما يكون عندهن موعد للرقص مع زبائنهن. والحلي؟ إنها لي. قالت: يكفي أن تلمسها لتعرف إنها لآلئ من الزجاج والصفيح. لذلك لا تبتئس. أنهت حديثها: هيا، أيقظها، واعتذر لها، وتحمل مسئوليتها من الآن. لا أحد يستحق أن يكون سعيداً أكثر منكما.

بذلت جهداً غير طبيعي لكي أصدقها، لكن الحب كان أقوى من العقل. قلتُ لها: عاهرات!، ومشوشاً تحت النار الحية التي كانت تشوي أمعائي. صرختُ: أنتنّ لستن أكثر من عاهرات قذرات!. لا أريد أن أعرف شيئاً عنكِ بعد اليوم، ولا عن أي عاهرة أخرى في العالم، وبشكل خاص هي. أشرت لها من عند الباب إشارة الوداع الأبدي. لم تشك "روسا كاباركاس":

–في رعاية الله.

قالت لي بتكشيرة حزينة، وعادت إلى حياتها الواقعية.

–على أي حال سأرسل لك حساب رعونتك التي فعلتها في الغرفة.



-5-

عند قراءة كتاب "***الثالث عشر من مارس***" عثرت على جملة مشؤومة ينسبها المؤلف إلى "يوليوس قيصر": "***من المستحيل ألا يتحول الإنسان منا إلى الشكل الذي يتصوره الآخرون عنه***". لم أستطع التأكد من المصدر الأصلي في أعمال "يوليوس قيصر" نفسه ولا في أعمال مؤرخيه، من أول "سنوتونيو" وحتى "كاركوبيبنو"، لكن معرفتها كان مفيداً. شؤماً منطقيّاً على مسيرة حياتي في الأشهر التالية كان هو ما منحني الإصرار على اتخاذ القرار ليس فقط كتابة هذه الذكريات، بل للبدء بلا خجل في حب "ديلجادينا".

لم يكن لدي أي لحظة للراحة، لا أكاد آكل قضمة واحدة، وفقدت الكثير من وزني إلى درجة أن بنطلوناتي تسقط من وسطي. والآلام المتنقلة سكنت في عظامي، أحوالي النفسية تتغير بلا سبب، كنت أمضي الليالي في حالة من الأرق لا تسمح لي بالقراءة ولا سماع الموسيقى، فيما كنت أقضي اليوم أتناوم من أجل غفوة قصيرة لا تفيدني للنوم. وجاءني الفرج من

السماء. في العربة الحقيرة لمنطقة "لوما فريسكا" جارة في المقعد لم أرها عند صعودي همست في أذني: هل لا تزال قادراً على الركوب؟، لقد كانت "كاسيلدا ارمنتا"، حب قديم من ثلاثة في خمسة تحملّتني كعميل لها منذ كانت مراهقة. وما إن تركت المهنة، نصف مريضة وبلا مال، حتى تزوجت من فلاح صيني منحها الاسم والدعم، وربما بعض الحب. كانت في الثالثة والسبعين وتزن نفس وزنها من قبل، لا تزال جميلة وتتمتع بشخصية قوية، وتحافظ على طلاقة المهنة.

أخذتني إلى بيتها، مزرعة صينيين في ربوة على طريق البحر. جلسنا على كراسي البحر بالشرفة الظليلة، بين السرخس والأشجار الوارفة، وأقفاص الطيور المعلقة على الإفريز. على سفح الربوة يمكن رؤية الفلاحين الصينيين بقبعاتهم القمعية الشكل يزرعون الخضراوات تحت الشمس الحارقة، والبحر الرمادي "بوكا دي ثينيساس" بصخرتي قطع البحر اللتين توجهان النهر لعدة أميال في داخل البحر. بينما كنا نتحادث شاهدنا دخول سفينة عابرة للأطلنطي بيضاء إلى المرسى وتابعناها صامتين إلى أن سمعنا خوارها الذي يشبه خوار الثور في الميناء النهري. تنهدت هي: هل تفهم؟، في أكثر من نصف قرن هذه هي المرة الأولى التي لا أستقبلك فيها في السرير. قلت: لقد اختلفنا عن السابق. واصلت هي دون أن تسمعني: في كل مرة

يحكون فيها أشياء عنك في الراديو، ويمتدحونك بسبب الحب الذي يكنه لك الناس، ويسمونك "معلم الحب"، تصور، أفكر انه لم يعرف أحد فضائلك ولا رذائلك أفضل مني. قلت: هذا حق. قالت: ولا أحد كان يمكنه احتمالك أفضل مني.

لم أستطع المقاومة أكثر من هذا، وهي شعرت بذلك، شاهدت عيني مغرورقتين بالدموع، وعندها فقط أمكنها أن تكتشف أنني لم أعد ما كنت من قبل وركزت نظرتي عليها بشجاعة ما كنت يمكنني أصدق أنه كان يمكنني مواجهتها. قلت لها: يبدو أنني بدأت أشيخ. تنهدت هي: نحن شخنا بالفعل. لكن الأمر إن الواحد منا لا يشعر بالشيخوخة من الداخل، ولكن من الخارج كل العالم يراها.

كان من المستحيل ألا أفتح لها قلبي، وهكذا حكيت لها الحكاية التي تحرق أمعائي كاملة، من أول مكالماتي مع "روسا كاباركاس" قبيل الاحتفال بعيد ميلادي التسعين، وحتى الليلة المأساوية التي حطمت فيها الغرفة ولم أعد إليها مرة أخرى. استمعت هي إليّ وأنا أفضى إليها بهمومي كما لو كانت تعيشها، تأملتها ببطء شديد، وأخيراً ابتسمت. وقالت لي:

– افعل ما تريد، لكن لا تضيع تلك المخلوقة. ليس هناك أتعس من الموت وحيداً.

ذهبنا إلى ميناء كولومبيا في ذلك القطار الصغير كلعبة والبطيء كحصان. تناولنا الغداء أمام الرصيف الخشبي المسوس في المنطقة التي دخل من خلالها العالم كله إلى البلاد قبل أن يفرغ "بوكا دي ثينيساس" (فم الرماد). جلسنا تحت مظلة من القش، حيث قدمت لنا العجائز الزنجيات الضخمات سمكاً مقلياً مع أرز جوز الهند وشرائح من الموز الأخضر. نعسنا في سبات طعم الاثنين العميق، وواصلنا الحديث إلى أن غرقت شمس القنديل في البحر الواسع. بدا الواقع سحرياً. سخرت مني: أنظر من أين جاءنا شهر عسلنا. ثم واصلت بجدية: أنظر اليوم إلى الأيام الخوالي، أرى طابوراً من آلاف الرجال الذين مروا بسريري، وعلى استعداد لأن أدفع روحي ثمناً للبقاء مع أسوئهم. شكراً لله، أنني وجدت الصيني قبل أن يفوتني قطار الزمن. يبدو كما لو أنني متزوجة من الإصبع الصغير، ولكنه لي وحدي.

نظرتْ في عيني، قاست حجم رد فعلي على ما انتهت من قوله، وقالت لي: إذن اذهب الآن للبحث عن تلك المخلوقة المسكينة حتى لو كانت ما تقوله لك الغيرة صحيحاً، على أية حال، ما رَقصتّه لن يستطيع أحد أخذه منك أبداً. لكن عليك، أن تنسى رومانتيكية الجد. أيقظها، وعاملها حتى الأذنين بخرقة الحمار هذه التي منحك إياها الشيطان لجبنك وبؤسك. أقول جادة. أنهت كلامها: لا تموت دون أن تجرب جمال حمل عبء الحب.

كان نبضي ينتفض في اليوم التالي عندما طلبت رقم التليفون. بسبب الأعصاب المشدودة للقاء "ديلجادينا"، كما بعدم معرفتي برد فعل "روسا كاباركاس". لقد مررنا بمعركة جادة بسبب تحطيمي للغرفة. بعت إحدى اللوحات الأثيرة لدى أمي، كانت قيمتها تساوي ثروة، لكن عندما حانت ساعة الجد لم تصل إلى عشر أحلامي. وزدت على المبلغ بما تبقى لي من تحويشة العمر وأخذت كل هذا إلى "روسا كاباركاس" كتعبير واضح: إما أن تأخذيه أو لتتركيه. لقد كان عملاً انتحارياً، لأنها لو باعت سراً واحداً فقط من أسراري كان يمكنها القضاء المبرم على اسمي. لكنها لم تأخذها، بل استولت فقط على اللوحات التي أخذتها معي ليلة الحادث. كنت أنا الخاسر الأكبر في لعبة واحدة: خسرت "ديلجادينا" وخسرت "روسا كاباركاس" وخسرت تحويشة العمر الأخيرة. إلا أنني سمعت جرس التليفون للمرة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ثم هي: هيا؟. لم يخرج صوتي. وضعت السماعة. ألقيت بنفسي في السرير المعلق، محاولاً استرداد الجدية مع غنائيات "ساتي" الصوفية، وتصببت عرقاً إلى درجة أن القماش تمرغ في عرقي. ولم تكن لدي الشجاعة الكافية للاتصال مرة أخرى حتى اليوم التالي.

قلت بصوت رابط الجأش:

– حسن، يا امرأة، اليوم نعم.

"روسا كاباركاس"، ولم لا، كانت مستعدة لكل شيء. تنهدت بهمتها التي لا تقهر: آي، يا حكيمي الحزين، تختفي شهران وتعود لتطلب المستحيل. حكت لي أنها لم تشاهد "ديلجادينا" منذ أكثر من شهر، وأنها كانت قد تغلبت على آثار صدمة أفعالي حتى إنها لم تعد للحديث عنها ولا السؤال عني، وأنها كانت سعيدة جدّاً بعملها الجديد، أكثر راحة وعائده أكثر من حياكة الأزرار. موجة من النار الحية أحرقت أمعائي. قلت: لا عمل سوى أن تكون عاهرة. ردت عليّ "روسا" دون أن ترمش: لا تكن أحمق، لو كان هذا لكانت هنا. ترى أين يمكنها أن تكون أفضل من هنا؟. سرعة منطقها زادت من حدة شكوكي: وكيف لي أن أعرف أنها ليست هناك؟. ردت هي: في هذه الحالة، من الأفضل لك ألا تعرف، أليس كذلك؟. كرهتها مرة أخرى. بعد إلحاح وَعَدت هي بالبحث عن الصبية. وبلا آمال كثيرة، لأن تليفون الجارة الذي كانت تطلبها منه مقطوع الخط وليس لديها أدنى فكرة عن المكان الذي تعيش فيه. قالت: ولكن ليس الأمر نهائيّاً، اللعنة، سأتصل بك خلال ساعة.

كانت ساعة تساوي ثلاثة أيام، لكنها عثرت على الصبية مستعدة وفي حالة صحية جيدة. عدتُ خجلاً، وقبلتها شبراً شبراً، طلباً للغفران، منذ الثانية عشرة وحتى صياح الديكة. اعتذار طويل وعدت تكراره إلى الأبد، وكان كما لو كان البداية من

جديد. تم تفكيك الغرفة تماماً، وانتهى استخدامها الشرير بكل ما وضعته هناك. لقد تركته هي على هذا النحو، وقالت لي إن أي ترفيه يجب أن أضعه أنا من ما أدين لها به. لكن حالتي المادية كانت قد وصلت إلى النهاية. راتب التقاعد كان في تناقص مستمر. والأشياء القليلة القابلة للبيع التي بقيت في البيت عدا حلي أمي المقدسة – ليست لها قيمة تجارية ولم يكن هناك ما هو قديم ليكون نافعاً. في الأيام الأفضل، كان المحافظ قد قدم عرضاً مغرياً لشراء مقتنياتي من كتب الكلاسيكيين الإغريق واليونان والإسبان للمكتبة العامة، لكني ضعفتُ ورفضتُ العرض. بعد ذلك، مع التغيرات السياسية وتبدل العالم إلى الأسوأ، لا أحد في الحكومة عاد يفكر لا في الفنون ولا الآداب. تعباً من البحث عن حل مرض، وضعت في جيبي الحلي التي أعادتها "ديلجادينا"، وذهبت لرهنها في حارة تعسة تؤدي إلى السوق العمومي. متصنعاً ملامح الحكيم شارد الذهن قطعت ذلك الكوخ الممل المليء بالكناتين الرديئة عدة مرات، ومكتبات الكتب القديمة وبيوت الرهن، لكن "فلورنتينا دي ديوس" أغلقت أمامي الطريق: لم أجرؤ. حينها قررت بيع حليها الأكثر قدماً والأغلى ثمناً.

وجّه إليّ العامل بالمحل عدة أسئلة بينما كان يتفحص الحلي بمنظاره. كان يتعامل بالطريقة والحنكة التي يتعامل بها الأطباء.

شرحت له أنها حلي متوارثة عن أمي. وافق على كل شرحي بحمحمات، وفي النهاية رفع المنظار عن عينيه، وقال:

– آسف، لكنها بلا قيمة تذكر.

أمام دهشتي، شرح لي بلهجة تهديدية: لحسن الحظ إن الذهب ذهب والبلاتين بلاتيناً. لمست جيبي للتأكد من أنني أحمل معي فاتورة الشراء، وقلت بلا أدنى نية سيئة:

–لقد تم شراؤها من هذا المحل المعروف قبل مائة سنة.

لم ينطق بحرف. وقال: يحدث هذا كثيراً، إن الحلي المتوارثة تختفي منها الأحجار الكريمة مع مرور الزمن، بإحلالها بأخرى عبر العائلة، أو من خلال جواهرجية لصوص، وفقط عندما يحاول أحد بيعها يكتشف الغش. لكن اسمح لي ثانية واحدة، قالها، وحمل الحلي عبر بوابة في آخر المحل. وعاد بعد مرور دقيقة، وبلا أي تفسير أشار عليّ بالجلوس في كرسي الانتظار، وواصل العمل.

تفحصت المحل. كنت قد ذهبت إلى هناك مع أمي عدة مرات، وتذكرت جملة متكررة: ***"لا تخبر أباك به"***. فجأة طرأت على ذهني فكرة أسخطتني: ألا يكون أن "روسا كاباركاس" و"ديلجادينا" اتفقتا معا على بيع الأحجار الحقيقية وأعادتا لي الحلي بالأحجار المزيفة؟

كنت أحترق بالشكوك عندما طلبت مني إحدى السكرتيرات أن أتبعها عبر باب العمق نفسه، إلى مكتب صغير، بأرفف طويلة عليها أكياس كبيرة. وقف بدوي ضخم خلف مكتب في أقصى الحجرة وصافحني بمعرفة صديق قديم. أمضينا معاً البكالوريا، قال لي، كطريقة للتحية. كان سهلاً تذكره: كان أفضل لاعب كرة قدم في المدرسة، وبطل أول مغامراتنا في البيوت السرية. اختفى عن نظري في لحظة غير متأكد منها، وربما وجدني عاجزاً فخلط بيني وبين زميل دراسة في طفولته.

على زجاج المكتب كان هناك أرشيف قديم مكتوب فيه تاريخ حلي أمي. تأريخ مضبوط، بتواريخ وتفاصيل تشير إلى أنها حضرت شخصياً وطلبت تغيير الأحجار التي أمتلكها جيلان وباعتها للمحل نفسه. وحدث هذا عندما كان والد صاحب المحل الحالي يدير محل المجوهرات، وهو وأنا كنا في المدرسة. ولكنه هو نفسه هدأ من روعي: عمليات المبادلة تلك كانت منتشرة بين العائلات الكبيرة وقت الحاجة، لحل مشاكل نقص السيولة النقدية دون التضحية بالشرف. أمام الواقع المرير، فضلت الاحتفاظ بها كذكرى لـــ"فلورنتينا دي ديوس" أخرى لم أعرفها مطلقاً.

شعرت مع بداية يونيو بالمسافة الحقيقية للموت. فقد قلبي الخطوات وبدأت أرى وأشعر في كل مكان علامات النهاية. أكثرها وضوحاً كان خلال كونشيرتو "الفنون الجميلة"، كان

جهاز التكييف معطلاً وأفضل رجال ونساء الأدب والفن كانوا مكدسين في الصالون الذي كان كحمّام البخار، لكن سحر الموسيقى كان مناخاً سماوياً. في النهاية، طرأ على ذهني إلهام بأني كنت أسمع آخر كونشيرتو كُتب عليّ قبل أن أموت. لم أشعر بالألم ولا بالخوف بل بالانفعال المدمر بأنني استطعت أن أعيشه.

عندما استطعت في النهاية فتح طريقي غارقاً في عرقي عبر العناق والصور، وجدت نفسي بين يدي وفم "خيمينا اورتيث"، كإلهة في عمرها المائة على كرسي متحرك. حضورها فقط فرض نفسه عليّ كخطيئة قاتلة. كانت ترتدي عباءة من الحرير بلون العاج، خشنة بخشونة بشرتها، وعقداً رفيعاً من اللؤلؤ الحر بثلاث دورات، والشعر بلون الصدف مقصوص على الموضة في العشرينيات بطرف يشبه جناح النورس يسقط على وجنتها، والعيون الكبيرة الصفراء مشعة بظلال طبيعية من آثار التعب. كل شيء فيها يقول عكس الإشاعات التي تقول إن ذهنها لا يحوي شيئاً بسبب تضاؤل عقلها المحتوم. وقفت أمامها متجمداً وبلا أي ثروة، تغلّب عليّ بخار النار الذي صعد إلى الوجه، وحييتها في صمت بانحناءة باريسية. ابتسمت هي كملكة، وجذبت يدي. عندها انتبهت إلى أن هذا أيضاً كان من صنع القدر، ولم أضيع الفرصة، لأتغلب

على شوكة في حلقي كانت تؤلمني منذ فترة طويلة. وقلت لها: لقد حلمت بهذه اللحظة خلال سنوات طويلة. بدا عليها أنها لم تفهم. قالت: لا أصدقك! وأنت من تكون؟. لم أعرف أبداً إن كانت حقيقة قد نسيت أم أنه كان انتقامها الأخير في الحياة.

الجيشان بإحساس إمكانية الموت، بالعكس، فاجأني قليلاً قبل خمسين عاماً في مرة مثل تلك، في ليلة من ليالي الكرنفال كنت أرقص فيها التانجو مع امرأة رائعة لم أرَ وجهها قط، أكثر امتلاء مني بأكثر من أربعين رطلاً وأكثر طولاً بشبرين، إلا أنها كانت مطواعة كريشة في الريح. رقصنا ملتصقين إلى درجة إنني كنت أشعر بدمها يجري في العروق، وشعرت كالنائم باللذة من لهيب أنفاسها، ورائحة ملابسها، ونهديها الممتلئين، عندما هزتني للمرة الأولى وكادت أن تلقي بي إلى أرض الموت. جاء صوت كهاتف إلهي مرعب في أذني: تفعل ما تفعل، خلال هذا العام أو بعد مائة عام ستكون ميتاً وإلى الأبد. ابتعدت هي عني مرتعبة: ماذا حدث لك؟. قلت: لا شيء. محاولاً الإمساك بقلبي:

-أنا أرتعش خوفاً عليك.

منذ ذلك الوقت بدأت أقيس الحياة ليس بالسنوات ولكن بالعقود. عقد الخمسينيات من عمري كان حاسماً لأنني انتبهتُ إلى أن كل الناس تقريباً أصغر مني سنّاً، والستينيات كانت

الأكثر توتراً لاشتباهي في أنه لم يبق لدي وقت حتى أخطئ. والسبعينيات كان مخيفاً لاشتباهي في أنه ربما يكون العقد الأخير من عمري. وبالتالي، عندما استيقظتُ حيّاً وسعيداً في أول يوم من أعوامي التسعين في سرير "ديلجادينا"، اخترقتني الفكرة السعيدة بأن الحياة ليست شيئاً يجري كنهر "هيراكليتو" العكر، بل هي فرصة وحيدة للتقلب على النار ومواصلة شواء النفس من الجانب الآخر خلال تسعين سنة أخرى.

أصبحت سهل البكاء. أي إحساس ليس فيه شيء من الرقة يسبب لي اختناقاً في الحلق لا أستطيع التغلب عليه دائماً، وفكرت في التخلي عن لذتي الوحيدة في السهر على حلم "ديلجادينا"، ليس بسبب عدم تأكدي من موتي كما بسبب الألم من تخيلها بدوني في ما تبقى لها من حياة. في يوم من تلك الأيام القلقة ذهبت في محاولة لشغل نفسي في ذلك الشارع النبيل شارع "الموثقين"، أدهشني ألا أجد سوى حطام الفندق القديم الذي بدأت فيه بالقوة تعلم فنون الحب قبل أن أكمل عامي الثاني عشر بقليل. كان بيتاً كبيراً لقدامى البحارة، ورائعاً كالقليل من بيوت هذه المدينة، بأعمدة مغطاة بالمرمر وأفاريز من صفائح النحاس، حول فناء داخلي بقبة من زجاج بسبعة ألوان تشع بعظمة المشتى. في الطابق الأسفل، ببوابة قوطية تؤدي إلى الشارع، كانت هناك مكاتب الموثقين الكولونيالية التي عمل فيها أبي

طوال أكثر من قرن، ونجح وأخفق في حياة من الأحلام الجميلة. العائلات التاريخية غادرت الطوابق العليا شيئاً فشيئاً، وانتهى البيت إلى أن احتلته جماعة من بنات الليل الفقيرات، كن يصعدن ويهبطن حتى الفجر بالزبائن الذين يصطدنهم ببيزو ونصف البيزو من الكناتين القريبة من الميناء النهري.

عندما كنت في الثانية عشرة، وكنت لا أزال ببنطلوني القصير وحذاء المدرسة الابتدائية، لم أتمكن من التغلب على إغراء التعرف على الطوابق العليا بينما كان أبي يتناقش في اجتماعاته التي لا تنتهي، ووجدتني أمام مشهد سماوي. كانت النساء يبعن أجسادهن بأبخس الأثمان حتى الفجر ويتحركن في البيت منذ الحادية عشرة صباحاً، عندما يكون حر النهار لا يحتمل، وعليهن ممارسة حياتهن المنزلية بالسير عاريات في البيت كله، وبين صياحهن يحكين مغامراتهن الليلية. أصابني الرعب. الشيء الوحيد الذي خطر لي هو الهروب من حيث أتيت، عندما احتضنتني من الخلف إحدى العاريات ذات جسد ممتلئ وتفوح منها رائحة زهور الصابون الجبلي، وحملتني حتى غرفتها الكرتونية دون أن أتمكن أنا من رؤيتها بين الصرخات وتصفيق الساكنات العاريات. ألقت بي على ظهري في سريرها الضخم الذي يكفي أربعة أشخاص، ونزعت عني البنطلون بطريقة بارعة وركبتني كحصان، لكن الرعب البارد

الذي كان يغطي جسدي منعني من استقبالها كرجل. في تلك الليلة، مسهداً في سرير بيتنا خجلاً من الهجوم، لم أتمكن من النوم لأكثر من ساعة واحدة تحت عنف الرغبة في العودة كي أراها. لكن في اليوم التالي، صعدت مرتعشاً حتى غرفتها، أيقظتها باكياً بأعلى صوتي، بحب مجنون استمر إلى أن أخذتها بلا رحمة رياح الحياة الواقعية. كان اسمها "كاستورينا" وكانت ملكة البيت.

حسابات الفندق كانت تكلف بيزو واحد لممارسة الحب السريع، لكن قلة كنا نعرف أنه يكلف الثمن نفسه للبقاء حتى أربع وعشرين ساعة. إضافة إلى أن "كاستورينا" أدخلتني إلى عالمها السيئ السمعة، حيث كانت تستضيف الزبائن الفقراء إلى موائد إفطارها الرائعة، وتهديهم الصابون، وتخفف عنهم آلام الأضراس، وفي بعض الحالات العاجلة تقدم لهم الحب مجاناً.

ولكن في آخر أمسيات شيخوختي لم يعد أحد يتذكر الخالدة "كاستورينا"، ربما لا يعرف أحد متى ماتت، تلك التي أخذت إلى عرشها المقدس الكثيرين من بؤساء الرصيف النهري، وقد وضعت رقعة قرصان على عينها التي فقدتها في معركة بالكانتين. آخر رجالها كان الزنجي السعيد "الكاماجوي" الذي كانوا يطلقون عليه اسم "جوناس الجاليوتي"، كان عازفاً في كبريات الفرق الموسيقية في "هافانا" إلى أن فقد ابتسامته نهائيّاً في كارثة قطارات.

عند الخروج من تلك الزيارة المريرة شعرت بنغزة في القلب لم أتمكن من علاجها خلال أيام ثلاثة بكل الأدوية المنزلية. الطبيب الذي ذهبت إليه في زيارة عاجلة، عضو في جماعة شهيرة، كان حفيداً للطبيب الذي فحصني عندما كنت في الثانية والأربعين، أرعبني أن يشبه جده تماماً، فقد كان عجوزاً كجده في السبعينيات من عمره، وبصلعة قبل الأوان، وعوينات قصر نظر بلا عودة، وحزن لا علاج له. فحص جسدي كله بدقة وتركيز جواهرجي. ضرب على صدري والظهر، ونظر في أعماق عيني، وشاهد لون الجفون الداخلية. وخلال فترات التوقف، بينما كنت أغير أوضاعي على طاولة الفحص، كان يوجه إليّ أسئلة مبهمة وسريعة لا تكاد تعطي الوقت للتفكير في الإجابة عنها. بعد ساعة تقريباً نظر إليّ بابتسامة سعيدة. وقال: حسن، أعتقد أنه ليس لدي ما أفعله من أجلك. ماذا تقصد؟. حالتك هي الأفضل لمن في مثل عمرك. قلت له: إنه أمر عجيب، هو نفس ما قاله لي جدك عندما كنت في الثانية والأربعين، كما لو كان الزمن قد توقف. قال: ستجد دائماً من يقول لك ذلك. لكنك دائماً ستكون في عمر ما. انتهزت أنا الفرصة لأقول رأياً مخيفاً، قلت له: الشيء الوحيد المؤكد هو الموت. قال هو: نعم، لكن ليس سهلاً الوصول إليه في حالة جيدة كحضرتك. أشعر بالأسف لأنني لا أستطيع أن ألبي لك ما تريد.

كانت ذكريات بارزة، لكن قبيل 29 أغسطس شعرت بثقل القرن الكبير الذي ينتظرني بصبر عندما صعدت سلم بيتي بخطوات ثقيلة. حينئذ عدت لأرى "فلورينتينا دي ديوس" مرة أخرى، أمي، في سريري الذي كان سريرها حتى موتها، وباركتني تماماً كما فعلت في المرة الأخيرة التي شاهدتها فيها، قبل ساعتين من موتها. مشوشاً بالانفعال فهمت تلك الإشارة على أنها إعلان النهاية، فاتصلت بـــ"روسا كاباركاس" لتأتي لي بصبيتي في هذه الليلة نفسها، وتحسباً لعدم تحقيق حلمي في العيش حتى آخر نفس من سنواتي التسعين. عدت إلى الاتصال بها في الثامنة، ومرة أخرى كررت هي أنه من غير الممكن. صرختُ مرتعباً: يجب أن يحدث. وبأي ثمن. وضعت السماعة دون كلمة وداع، لكن بعد خمسة عشر دقيقة عادت للاتصال:

-حسن، إنها هنا.

وصلتُ في العاشرة وعشرين دقيقة ليلاً، وقدمت لـــ"روسا كاباركاس" آخر رسائل حياتي، مع استمرار حقي على الصبية بعد نهايتي المرعبة. فكرت هي أنني منفعل بسبب الطعنات وقالت لي بشيء من السخرية: إذا كنت ستموت أرجو ألا يكون هنا. تخيل هذا. لكني قلتُ لها: أخبريهم إن قطار ميناء كولومبيا قد صدمني، ذلك اللعبة المسكين المثير للشفقة غير قادر على قتل أحد.

كنت مستعداً تلك الليلة لكل شيء، نمت على ظهري في انتظار الألم الأخير مع اللحظات الأولى لعامي الواحد والتسعين. سمعت دقات جرس بعيدة، وشعرت بعطر روح "ديلجادينا" النائمة على جنبها، سمعت صرخة في الأفق، وبكاء لشخص ربما مات في هذه الغرفة قبل قرن. حينئذ أطفأت النور بآخر نفس، شبكت أصابعي بأصابعها لآخذها من يدها، وعددت دقات الأجراس الاثنتي عشرة باثنتي عشرة من دموعي الأخيرة، إلى أن بدأت الديكة في الصياح، ومن بعدها سمعت دقات أجراس المجد، لقد كانت صواريخ الأعياد التي تعلن السعادة بأنني عشت بصحة جيدة أعوامي التسعين.

كانت أول كلماتي إلى "روسا كاباركاس": أريد أن أشتري منك البيت، كله، بالمحل والحديقة. قالت لي هي: فلنعقد مراهنة عجائز: من يعيش منا يكون له كل شيء يملكه الآخر، ونوقع الاتفاق أمام موثق. لا؛ لأنني لو مت يجب أن يذهب كل شيء إليها هي. قالت "روسا كاباركاس"، الأمر سيان، أتحمل أنا نفقات الصبية وبعدها أترك كل شيء لها، ممتلكاتك وممتلكاتي، ليس لي أحد غيرها في هذا العالم. وإلى أن تحين تلك اللحظة نرمم غرفتك ونضيف إليها غرفة حمّام جيدة، ومكيف هواء، وكتبك وموسيقاك.

قالت:

– هل تعتقدين أنها ستوافق على ذلك؟.

قالت "روسا كاباركاس" وهي تموت ضحكاً: آي يا حكيمي الحزين، حسن أن تكون عجوزاً، لكن لست جباناً. هذه المخلوقة المسكينة تموت فيك حبّاً.

خرجت إلى الشارع متألقاً وتعرفت على نفسي لأول مرة في الأفق البعيد لقرني الأول. كان بيتي، صامتاً ومنظماً في السادسة والربع، بدأت أستمتع بألوان الفجر السعيد. كانت "دميانة" تغني في المطبخ بأعلى صوتها، والقط الذي استعاد عافيته لف ذيله حول كعبي وواصل المسير معي إلى أن وصلت إلى طاولة الكتابة. كنت أنظم أوراقي المجمعة، والمحبرة، وريشة الإوز، عندما انبثقت الشمس من بين أشجار اللوز في الحديقة العامة وسفينة البريد النهري، وصلت متأخرة عن موعدها أسبوعاً بسبب الجفاف، دخلت هادرة إلى قناة الميناء. أخيراً كانت الحياة الواقعية، وقلبي سليم ومحكوم عليه أن يموت بحب طيب في نزعات سعيدة لأي يوم من الأيام بعد أعوامي المائة.

مايو 2004

من إصدارات
دار سنابل

- **أن تعيش لتحكي**
  السيرة الذاتية
  جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **ليالى القصف السعيدة**
  نصوص وقصص
  محسن الرملي
- **ليلة شهر زاد الأخيرة**
  شعر
  مقداد رحيم
- **جماليات الرفض في مسرح أمريكا اللاتينية**
  دراسة
  د.طلعت شاهين
- **السكسفون المجنح**
  شعر
  سامي العامري
- **حكاية أيرنديرا البريئة**
  جابرييل جارثيا ماركيز
  ترجمة: د.طلعت شاهين
- **طلسمات مصرية**
  محمد حسين يونس
- **نضارة شمس**
  شعر
  عطية حسن

